دوحة الكتب
@dohat_alKutub

غالية ف. ت. آل سعيد

صابرة وأصيلة

رواية

تصوير:
@Qalm93

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

twitter:@dohat_alkutub

صابرة وأصيلة

twitter: @dohat_alkutub

غالية ف. ت. آل سعيد

صابرة وأصيلة

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

twitter: @dohat_alkutub

SABIRA AND ASILA

By

Ghalya F. T. Al Said

Copyright © Ghalya F. T. Al Said
First Published in March 2007
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-286-4

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: آذار/مارس ٢٠٠٧

twitter: @dohat_alkutub

وقعت أحداث هذا العمل الخيالي في عقد الستينيات من القرن الماضي، وكان مسرحها مسقط عاصمة سلطنة عمان. كان الناس حينئذٍ متعطشون للعلم والمعرفة، وكانت وسائل المعرفة شحيحة، لدرجة الانكباب على الوجه لقراءة ما تيسر من مكتوب. كنا نتهافت على قصاصات الجرائد العربية التي تصلنا بشق الأنفس، ونعتبرها كنزاً ثميناً لا يقدر بثمن. لقد أوحت لي تلك الحقبة من تاريخ عمان موضوع وأحداث الرواية، لذلك تجدني أهدي عملي هذا للذين عاشوا تلك الحقبة، فهم الأبطال الحقيقيون لرواية صابرة وأصيلة التي بين أيديكم... وأقول فلسطين النصر قريب إن شاء الله.

وخالص شكري للأخ الشاعر القدير عدنان الصائغ،

twitter: @dohat_alkutub

البراعة التي تميزت بها أشعاره ولدت صدى عميقاً في روح القارئ وفكره، شكراً لعدنان لكرمه بالتفضل ببعض قصائده لترد في عملي المتواضع هذا، على لسان البطل شهم أبو طفله. قصائد عدنان من ديوانه تحت سماء غريبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية ٢٠٠٢.

twitter: @dohat_alkutub

صابرة وأصيلة صديقتان حميمتان، تفتخران بالصداقة التي ربطت بينهما منذ الصغر وتوثقت بفضل الجيرة والعلاقات الأسرية. أدت زمالة المدرسة، من عمر الثامنة وحتى الرابعة عشرة، دوراً كبيراً في وضع أساس متين للعلاقة بينهما لدرجة أنهما لا تفترقان ليل نهار، لم تنجح الاختلافات الأسرية والشكلية والمعيشية في إضعاف العلاقة بين البنتين على أي وجه من الوجوه. ظلت المودة والمحبة التي تربطهما متينة حتى لكأنها في مأمن من تصاريف الزمن وغلوائه.

تتكون أسرة أصيلة من الأب والأم وخمسة أولاد وأربع بنات، من الناحية الأخرى تتكون أسرة صابر من أب وأم وأخ واحد يكبرها بأعوام كثيرة، وهي بذلك أصغر أسرة في الحارة. وحسب العرف الاجتماعي عادة، يعدّ صغر حجم الأسرة من العيوب القاتلة التي تدعو الناس للتساؤل عن السبب الذي منع الزوج من إنجاب

twitter: @dohat_alkutub

الأطفال، حيث تجد الناس يهمسون فيما بينهم ويصفون الأمر بالريبة والغرابة، وذلك إشارة إلى وجود عجز في رجولة الزوج. كان والد صابرة يشعر في دخيلة نفسه بالخجل من قلة الإنجاب ويحاول قدر الإمكان التأقلم مع الوضع وقبوله أمام الناس، ويقول هذا ما رزقه الله لي. ما زال الرجل المسكين يذكر الكلمات التي يرددها أبوه صباح مساء: ناصر عيب عليك أن تظل الرجل الوحيد في الحارة الذي ولد طفلين لا غير، شد حيلك حتى لا يظن الناس أن بك خللاً، وتذكر نحن أسرة تتميز بالفحولة، أنا وجدّك خلفنا عشرات البنين والبنات ولي القدرة وأنا في هذا العمر أن أتزوج وأنجب.

إضافة إلى الاختلاف في عدد أفراد الأسرة، تختلف الفتاتان في الشكل ومستوى الجمال. صابرة سمراء اللون بملامح جميلة وأنف مستقيم وعيون واسعة وشفة بارزة ممتلئة تزين وجهها وتمده بجاذبية صارخة تلفت انتباه الرجال كلما مرت في شوارع الحارة. ومما زاد من جمالها تميزها بقامة متوسطة وأسنان بيضاء أنيقة وشعر أسود طويل وأيدي بضة وأصابع رشيقة. أما أصيلة فهي أقصر وأنحف من صابرة ولونها فاتح وشعرها طويل ناعم الملمس وفي عيونها شعاع من القناعة والثقة بالنفس.

أبو صابرة يشتغل في الحرف اليدوية، بعد تقاعده من العمل في الجيش، يصنع ويبيع الحبال والحصير والأدوات الفخارية. أما أبو أصيلة، فبعد اشتراكه في الحرب الأهلية بالخمسينيات، فتح دكاناً صغيراً لبيع المواد الغذائية، عند مدخل مدينة مسقط في مكان يعرف بـ«الباب الصغير». والد أصيلة على اتفاق تام في مع زوجته في كل الأمور وخاصة من ناحية تربية الأبناء والبنات وأسلوب المعيشة

twitter: @dohat_alkutub

وتدبير شؤون البيت. الهدوء والاستقرار الذي تنعم به أصيلة في بيتها جعل منها فتاة مرحة وسعيدة ومنسجمة مع محيطها الأسري والاجتماعي والمدرسي، كما زادت من سعادتها المعاملة الطيبة التي تلقاها من أفراد الأسرة، إذ يسبغون عليها التدليل بصفتها آخر العنقود وحبيبة الجميع وسط الجيران والمدرسات وسكان الحارة.

على العكس، تعيش صابرة حياة بائسة ومرتبكة. بيتهم يحكمه أخوها حمد، الذي يكبرها بخمسة عشر عاماً، حكماً صارماً وكلمته نافذة تمشي على الجميع بمن فيهم والده الذي يعيش في ظل الابن المسيطر. هذا الوضع دفع صابرة إلى النضوج المبكر وأجبرها على القيام برعاية شؤون البيت وتدبيره. في نفس الوقت لا تستطيع صابرة تدبير حياتها من دون إذن مسبق من حمد، الذي يسيطر على كل جوانب حياتها داخل البيت وخارجه. تتملك صابرة صرخة مكبوتة وتمرد داخلي على سلطة حمد، وهو أمر لا يعرفه أحد سوى صديقتها الصدوقة أصيلة. كانت أصيلة تتندر بالمسألة وتقول لصابرة يجب أن تنخرطي في إحدى الجبهات الثورية التي نسمع بها حتى لا تنفجر ثورتك وتحطم كل ما حولك من أهل وأصدقاء وجيران.

في الفترة الدراسية القصيرة التي حظيت بها في المدرسة الابتدائية، نجحت صابرة في معرفة مبادئ القراءة والكتابة بسرعة لافتة للنظر، وعندما بلغت الثامنة من عمرها شعرت بنمو عقلها وتطوره، وحصلت على مهارات منزلية مفيدة مثل فتح مفتاح النور وقفله وتشغيل أجهزة الطبخ المنزلية. لكن صابرة لم تتمكن من الاستمرار في التعلم، الذي ارتاحت له وأحبته، لأن حمد وقف حجر عثرة أمامها ومنعها من مواصلة الذهاب للمدرسة، على الرغم من

twitter: @dohat_alkutub

البرهان الذي كانت تعود به إلى البيت من علامات عالية ونجوم ذهبية تزين بها المدرسات كراسات الطالبات المتميزات. كانت المدرسات تطلبن من صابرة المشاركة في الأنشطة المدرسية المختلفة، التي تنظم في العصر، إلا إن حمد يمنعها بحجة خطورة الخروج من المنزل في ذلك الوقت. كان حمد يخيف والده من الضرر الذي يلحق بالعائلة حال تحول صابرة إلى امرأة ذكية وسريعة البديهة، ويحذره من أن تتمتع ابنته بالتميز العقلي والاستقلال الذاتي. صابرة لم تكن بالنسبة لحمد سوى شبح، يعرض له من وقت لآخر، أو ضحكة مزعجة تقض مضجعه وتؤرق نومه.

كان حمد يردد: على صابرة أن تتحول في وقت قريب لزوجة وأم لا أكثر ولا أقل، لا تحتاج إلى تعليم، ما تحتاج له هو تعلم الطبخ وذلك سيتحقق من مرافقة أمها في البيت وليس في غيابها ليوم كامل في مكان يدعى المدرسة. وكان يخاطب والده بالقول: المدرسة مكان دخيل على عاداتنا وتقاليدنا، ما لنا والتعليم بالله عليك يا أبي، نحن ناس فقراء ولن نرسل بناتنا للعمل في المكاتب والمستشفيات كما يفعل الرجال الأجانب، لدينا غيرة على بناتنا ونريد بنات مستورات وخاضعات. على صابرة ارتداء غطاء الوجه عند خروجها من المنزل، كما تفعل أمي، وعليها المساعدة في البيت من طبخ وكنس وتدبير. ما فائدة هذه النجوم الذهبية السخيفة التي تزين بها المدرسات كراساتها؟ بالله قل لي يا أبي ما فائدتها، أنها تساعد الفتاة على التعالي والتمرد على أسرتها، وفي نهاية الأمر تبقى عانساً لتخوف الرجال منها ومن التعليم الذي تتعالى به على الجميع. هذا يعنى أن نظل نحن الإخوة والآباء نعيل بنات فاتهن قطار الزواج، أين الصواب في أمر كهذا؟ أعدك يا أبي أن ذلك لن يحدث تحت سقف هذا البيت ما دمت أنا حياً،

twitter: @dohat_alkutub

مهمة صابرة الأولى والأخيرة هي الطبخ والخياطة وتربية أبنائي والزواج وتربية أبنائها.

حمد لم ينل الكثير من التعليم، على الرغم من التسهيلات التي توفرها الحكومة ووجود أحسن مدرسة في مسقط بالقرب من بيتهم. ما كان يهمه هو الذهاب إلى السوق في العصر والهروب من المدرسة في أوقات الحصص والذهاب مع أصدقائه لصيد العصافير والسباحة عند الشاطئ قبالة مطرح. لم يستطع أبوه منعه من التمادي في حياة التسيب التي يعيشها، لذلك فكر في إرساله إلى الكويت أو السعودية أو البحرين للعمل كباقي الشباب ليساعد في معيشة الأسرة. وفي يوم السفر تصنع بأنه وقع من على شجرة ودخل في غيبوبة، ومنذ ذلك الوقت وهو يقضي وقته في العبث، لم تغير رأيه صعوبات الحياة التي تكتنف أسرته، كما لم تهمه أمنية والده أن يترك الكسل ويساعده في التجارة أو يقوم بأي عمل مفيد له وللأسرة.

أجبر تسلط حمد وتقاعس الأسرة صابرة على ترك المدرسة، وحرمها من التمتع بأجمل أيام طفولتها والذهاب للمدرسة مع زميلاتها مثل أصيلة ورقية ورحمة ورياء. تتألم صابرة، بعد كل تلك السنين، عندما تتذكر أن زميلات الدراسة، عدا أصيلة، لم تعد تربطهن بها أي رابطة أو صلة. وعلى كل حال، عند مغادرة صابرة للمدرسة دخلت مرحلة جديدة من حياتها، امتدت لياليها وتطاولت كليالي السجن الدامسة، وتحولت من تلميذة تلعب في فناء المدرسة إلى فتاة محبوسة بين جدران المنزل، تكرس كل وقتها للطبخ والتنظيف والاعتناء بجيش من بنات حمد. كل محاولات حمد إنجاب ولد تنتهي ببنت جديدة حتى وصل العدد إلى ثمانٍ،

twitter: @dohat_alkutub

المنزل يشبه مدرسة البنات، يعج بالملابس والأحذية وأدوات الزينة والصراخ كطنين البعوض واللعب كحركات الذباب.

وكان عقل صابرة يواصل نموه مثل زهرة نادرة في مختبر، كتب عليها أن تحيا في سجن زجاجي محكم القفل وظروف مناقضة لقوانين الطبيعة وأحكامها.

جلس حمد في يوم من الأيام قبالة والده يحدثه عن خطة متماسكة توظف بها الأسرة القدر الضئيل من التعليم الذي حصلت عليه صابرة وتستفيد منه. قال وهو يمسح شاربه ويلوك لقمة كبيرة من السمك المقلي مع الخبز:

— دعنا نوفر على أنفسنا بعض المال بدلاً من بعثرته على أشياء لا تفيد كتعليم البنات كما تطلب مني زوجتي وكما كانت الحال مع صابرة. المال الذي نوفره سيساعدنا في شراء البرسيم للماعز التي تدر لنا حليباً نحن في أمس الحاجة إليه، وبيع بعضها في السوق العيد القادم. بما أن صابرة تجيد القليل من القراءة بعد السنوات المتعثرة التي قضتها في ما تسمى بالمدرسة، سأطلب منها تعليم بناتي القرآن الكريم! دعها تعمل عملاً مفيداً للأسرة، دعها تطبخ وتغسل الملابس وتنظف البيت حتى يكتب الله لها زواجاً في وقت قريب إن شاء الله.

كانت صابرة تتنصت للحديث الجاري بين حمد ووالدها، لذلك حزنت حزناً شديداً، مزق قلبها وجعلها تشعر بالهم والغم مما هي فيه. شعرت بأنها قد دخلت مرحلة العجز واليأس، مثل امرأة عجوز

twitter: @dohat_alkutub

أصابها الضعف والوهن. حاولت تركيز تفكيرها في محاولة كي تفهم مغزى وطبيعة الأساليب القاسية التي يعاملها بها حمد على مرأى ومسمع من أبيها، إلا أن عقلها فشل في إيصالها إلى حل يقنع عقلها ويرضي مشاعرها. كانت تعي أن عقلها بعد تركها المدرسة صار مثل نبتة فقدت الماء والهواء والشمس والتربة. ورغم ذلك، صابرة متأكدة من أمر واحد هو أن عليها حماية عقلها من الاضمحلال والموت البطيء، وعليها العمل على شحذه من أجل البقاء الجسدي والنفسي والعقلي. ليس صعباً، فكرت صابرة، أن أخرج من الحلة التي أعيش فيها وأغادر عمان بكاملها، لأنطلق في العالم الواسع، من أجل الحصول على المعرفة الرحبة والعلوم المتعددة. وهي تحلق في هذه الآفاق، سمعت أباها يقول:

— كان في حارتنا منذ زمن بعيد بنت أرسلها أبوها للمدرسة، وبعد فترة قصيرة من دخولها المدرسة وإلمامها بالقراءة والكتابة بدأت المئات من الرسائل تصلها. ولم يكن الأمر مقتصراً على عمان بل رسائل من خارج عمان، هل تصدق بدأت تراسل رجالاً أسماؤهم منشورة في الصحف والمجلات، بعضهم من العراق والأردن ومصر والسودان وفلسطين والمغرب. كانت فضيحة كبيرة لم يتحملها أبوها المسكين فأصابه الجنون. هذه نتيجة تعليم البنات وهذا مصير كل من يرسل ابنته للمدرسة. أنت على صواب، يجب علينا الحذر من الوقوع في الهاوية وارتكاب نفس الغلطة مع أختك صابرة.

كان لحمد مقدرة فائقة على معرفة الأشياء التي تؤذي النساء وتسبب لهن الذل والهوان. في يوم من الأيام نظر إلى أخته، وهي

twitter: @dohat_alkutub

تمارس عادتها المفضلة باللعب في الرمل بقطعة خشب صغيرة في يدها، ووجه كلامه إلى أبيه قائلاً: لا أظن أننا سنواجه مثل هذه المشكلة مع صابرة. تكلم حمد بصوت عال حتى تسمعه، وهي تنتظر نضوج الأرز الذي تطبخه في القدر على النار.

مسحت صابرة الرسوم والأشكال التي خطتها على الرمل بمقدمة قدمها اليمنى وغادرت المكان غير مهتمة بالكلمات الجارحة التي يتفوه بها حمد، كأنما أرادت أن تذكره بالمثل الذي يقول: الجمل يمشي غير مكترث والكلب ينبح في عنت وتعب.

عرفت صابرة، منذ أمد طويل، أن الدور المطلوب منها في البيت لا يتعدى الطبخ والكنس والعناية بالأطفال، وعرفت أن هذا ليس كل ما تريده. هناك أشياء أخرى جميلة تطمح فيها، وأهداف بعيدة المنال تتوسم في نفسها القدرة على الوصول اليها، رغم الصعوبات التي تكتنف محاولتها لتحسين معارفها وعلومها. في يوم كانت تخيط ملابس إحدى بنات أخيها، تذكرت فجأة أن لها عقلاً كانت قد بدأت تنسى وجوده، وتفقد القدرة على توظيفه لقلة ما تدخل فيه من معلومات ومعارف، فالقليل الذي تقرأه كان عليها إخفاؤه عن أبيها وحمد.

على الرغم من هذه الصعوبات، عليها توظيف عقلها في التفكير وفهم الأمور والقضايا الشائكة. هناك حاجز كبير يقف بينها وبين أهدافها وواجباتها، وشعور بالذنب كلما أخرجت عقلها من مخزنه الأبدي ووضعته قيد الاستعمال. اختلط الشعور بالذنب بغضب شديد عندما تبين لها أن النور بدأ يفارق المكان إلى غير رجعة والظلام حل على الجنبات وسيطر على السطوح. يجب ترك ما

twitter: @dohat_alkutub

تخيطه والاستعداد لأداء صلاة المغرب ثم إعداد ما ستأكل الأسرة في وجبة العشاء. هذان عملان تقوم بهما كل يوم من دون تخلف، الأول ينعش روحها ويقربها من ربها والآخر مجرد روتين لا حياة فيه، صابرة لا تكترث للمديح الذي تسمعه من بنات أخيها إن تلذذن بوجبة قامت بطهيها. تكثف الظلام وصغر ثم زحف على القماش الذي تخيطه حتى وصل إلى إبرة الخياطة في يدها فدخل من سم الإبرة. واصل الظلام فعله الشنيع، يدخل في سم الإبرة ويخرج منه، حتى شعرت بالفتور وأدركت أنها متعبة ويجب عليها ألا تتأخر عن موعد تأدية الصلاة والقيام بما عليها من واجبات.

حيطان المنزل عالية كما السجون والقلاع ووالد صابرة لا يود التدخل في المشاجرات الكثيرة التي تنشب بينها وبين حمد، بسبب خوفه الشديد من ابنه. في نهاية الأمر ما يهم حمد هو الطعام الذي تعده له وللأسرة والراحة التي يتمتعون بها من خلال العمل المتواصل الذي تقوم به من أجلهم.

أمها تعيش في قلب الظلام نفسه، حيث تختفي طوال اليوم في زاوية منفردة تنتظر ما يقدم لها من زاد وعناية، بسبب فقدان البصر الذي أصابها منذ زمن بعيد وخوفها الشديد من حمد. بالنسبة لحمد لا تعدو صابرة أن تكون مشكلة ألمت بالأسرة لعنادها في بعض المرات وعدم تقدم عريس لها خصوصاً أنها بدأت تتقدم في العمر، فقد بلغت سن الثامنة عشرة ولم تقترب من بيتهم أي خطّابة، رغم قلة الفتيات المناسبات للزواج في الحارة. عندما ينظر إليها تغمره رغبة جارفة في مسح شاربه والقيام بتوبيخها ليمحي ذلك العناد المرتسم دائماً على وجهها، كم يكرهه

twitter: @dohat_alkutub

ويكرهها هي نفسها، لا شيء يربط بينهما، لا سؤال ولا جواب، فهي كشجرة نخيل يبست جذورها وقل ثمرها.

حمد لديه عدد كبير من البنات، الأمر الذي يعتبره عاراً وفضيحة لأنه لا يجد سبباً معقولاً لمقدرة صلبه على إنتاج عدد هائل من البنات وفشله في الأولاد. لكنه يظن أن الأمر يعود لزوجته، وبدأ يهددها بالزواج من امراة أخرى إن لم تغير أسلوبها في إنجاب الإناث! وفى اليوم الموعود كانت زوجته تشعر بأعراض الولادة وهي خائفة من وصول بنت أخرى وفشلها فيما يطالبها به حمد، لذلك أوصت أخت زوجها عدم إخبارها إن كانت المولودة بنتاً، كي لا يغمى عليها من اليأس ويتحطم الأمل وتزداد الحيرة حول حظها العاثر في عدم إنجاب البنين. يمثل ميلاد ولد الضمانة الوحيدة لهدوء بال هذه المرأة المسكينة واستقرار مستقبل أسرتها.

علا الصراخ وبدأت الجارات يتسارعن للبيت لمساعدة زوجة حمد عند ميلاد الطفل. في تلك الساعة قرر حمد أنه لو سمع كلمة بنت تطلع من فم القابلة سيشرع في الزواج من أخرى من دون تأخر أو تردد. وبالفعل خرجت طفلة، لذلك حدّث حمد نفسه قائلاً: أين أولي وجهي من العار؟ ألم يكفني مناداة الناس لي بأبي البنات؟.

هرعت صابرة نحو زوجة أخيها حاملة إناء كبيراً فيه ماء لتنظيف المولودة الجديدة، بينما كانت أمها تقدم نصائح غير واضحة المعالم لجميع الحاضرات، من مكانها المنزوي داخل الحجرة المعتمة. هرع حمد مبتعداً عن مصدر الصراخ ووقف بجانب أبيه خارج البيت، كأنه يبتعد عن حقيقة كريهة لا يود مجرد التفكير فيها. مسح بقدميه

twitter: @dohat_alkutub

الرسوم والأشكال التي خطتها صابرة على الرمل بغضب، محاولاً التستر على ما يدور بداخله من أفكار عن زواجه المرتقب وغيظه من زوجته التي اختارت أن تلد مولودة بدلاً من مولود. قال حمد:

ــ فائدة البنات تتركز في المهر ولا شئ آخر. قبل ذلك عليك أن تطعمهن وتكسوهن لسنين طويلة كما هي الحال مع صابرة، عليك أن تطعم وتكسو حتى تتعب نفسك وترهق جيبك وتغرق في الديون ثم يأتيك رجل غريب ليأخذها من ذمتك.

ــ قال الأب وهو خائف من حمد ومشفق على صابرة من آراء ابنه ضد البنات: أنت على صواب، ولكن هذه سنّة الحياة وما كتبه الله علينا.

ــ واصل حمد قائلاً: أما أنا فلن أعلم أياً من بناتي ولن أدعهن يرين الشارع سوى في الليل ومع والدتهن فقط. أنا لا أريد الفضائح كما هي الحال مع بعض الجيران. تذكر صالح الذي تلقى الخبر الفظيع من رجل غريب قابله في السوق وأخبره أن ابنته في تلك الليلة على موعد غرامي مع ابن جارهم، غريب، الذي يعمل في قطر. أغواها غريب بهندامه الأنيق وما لدية من مال عاد به، كما هي حال المغتربين الذين عاثوا في الأرض فساداً. في ذلك المساء تأهب صالح لهذا اللقاء السري من دون علم ابنته فاطمة. عند حلول الليل ظنت تلك «الفاسدة» أن الجميع خلد للنوم وتسللت بخفة، في كامل زينتها، ومشت إلى أسفل الجبل حتى وصلت إلى تحت شجرة سمر. الرحمن كان في عون جارنا صالح الذي

twitter: @dohat_alkutub

تمكن من مباغتتهم قبل أن تحدث الفتنة وانهال عليها بفأس وسفك دمها، لكنه لم يتمكن من اللحاق بالوغد لسفك دمه، حيث فر هارباً إلى قطر ولم يعد حتى يومنا هذا. المغترب اللعين عمل فتنة كبيرة لن تتخلص منها الحارة مدى الدهر، لكل هذا يجب أن آخذ حذري من بناتي وأراقب كل حركة ولفتة يقمن بها قبل أن يخرب بيتي وبيتك يا أبي بما أنهن حفيداتك.

— قال الأب: أنت على حق، لا شيء يهم مثل السمعة خصوصاً سمعة البنات، لهذا، كما ترى، سحبت صابرة من المدرسة آخذاً بنصيحتك يا أبني بعد بلوغها سن الرشد بيومين.

خرجت صابرة وقذفت ماء متسخاً من إناء كبير على الأرض، فوقع على جحر نمل أمام باب المنزل وقالت في داخلها: متى سيكل ويمل كل من والدي وأخي من الحديث المتواصل عن فجور البنات وكوارثهن وتكلفتهن وإزهاق دمهن؟ أليس هناك مواضيع أخرى يشغلان بها عقلهما بدلاً من هذا النقاش الممل؟ ألا يدركان أن هناك عالماً بأكمله خارج حدود هذا الحيز الضيق الذي يصبحون ويمسون في داخله؟ ولكن للأسف قلة التعليم تلعب دوراً كبيراً في خلق شخصية البشر، كم أتمنى اليوم الذي أجدهما يتناقشان في السياسة العالمية والمواضيع التي تهم المجتمع المحلي. كانت صابرة تدرك أن الشخص الذي يبتدر الحديث ويحمسه ليس أباها المسكين بل هو أخوها حمد.

غادر حمد وأبوها المكان وذهبا للحديث مع مزارع قريب من منزلهما، يجلس أمام محصوله اليومي يبيع وينادي على المانجو

twitter: @dohat_alkutub

والرطب والليمون. كانت تراقبهما وهما يمشيان بعيداً عن البيت، وهي على يقين أنهما لن يعودا إلا في وقت متأخر من اليوم بسبب أن حمد انتابه الغضب والخجل وخيبة الأمل من المولودة الجديدة.

لم تعد تعليقات حمد حول البنات عامة وتعليمهن خاصة تغضبها، بل بدأت تمثل لها دافعاً للتعلم الذاتي والمعرفة المستقلة. كانت كلما وجدت شيئاً تمسكه بيديها وتكتب عليه بالفحم أو القلم، وكلما وجدت شيئاً مكتوباً تقرأه بلهفة لتؤكد لنفسها أنها ما زالت محتفظة بالعلم القليل الذي نالته أيام الدراسة. تفهم ما تقرأه وتمزجه بالأحداث العالمية إن كان الخبر عالمياً أو فنياً أو محلياً، رغم أن الأخبار المحلية في أيامها كانت شحيحة. قراءة ما يصل إلى يدها شيء مهم جداً لندرة الكتب والمطبوعات في ستينيات القرن الماضي، إذ لم يكن متوفراً غير الكتب المدرسية المقررة على الطلاب. كانت تحصل على بعض الصحف القليلة التي تجد طريقها بصعوبة إلى أسواق مسقط وسريعاً ما تنفد، وأحياناً يواتيها الحظ فتحصل على صفحة جريدة مصرية أو لبنانية، لف بها صاحب الدكان كمية من التمر أو البصل أو البطيخ، فتفرح بها فرحاً شديداً وتقرأها ثم تدسها في خزانة ملابسها. كانت صابرة تعرف خطورة الممنوعات التي تخفيها في خزانتها وتعرف العقاب الذي ينتظرها، إذا تم العثور على دليل يثبت تهمة القيام باستعمال العقل والتفكير في أمور غير مسموح بها، فالقراءة على رأس قائمة هذه المحرمات.

الفرصة المناسبة التي ترجع فيها صابرة إلى كنوزها التعليمية وتقرأها كانت عندما يخرج أبوها وحمد وتجلس زوجة حمد خارج المنزل وترقد أمها على سريرها وينام الأطفال. في ذلك الوقت قرأت

twitter: @dohat_alkutub

تقريراً نشر في صحيفة من القاهرة، وجدتها في صندوق برتقال أحضره والدها لأمها لتقوّي به صحتها، البرتقال مثل الصحف يعتبر من النوادر في ذلك الزمان. جاء في التقرير ما يلي:

لا شيء. لقد تم نقل العميد للعمل على الحدود السودانية، لكن تظل مسألة الجواسيس الذين أرسلهم العدو والضرر الذي أحدثوه مسألة في غاية الخطورة، ومن واجبنا الانتباه وعدم التراخي. نحن نعرف وجود مخرب في أحد مخابز خان الخليلي يقوم بتلويث الطحين بسم الفئران، الأمر الذي أدى إلى دخول امرأة حامل وزوجها، وهو من المشاركين في حرب ١٩٤٨، المستشفى حيث يرقدون بين الحياة والموت. للمرأة سبعة أطفال، يا للبشاعة وانعدام الإنسانية، على المصريين أن يواجهوا هذه البربرية يوماً بعد يوم. وهناك حادث يتعلق بمقتل رجل عجوز قرب محطة للكهرباء. الجرح الذي أدى لموته على درجة عالية من الدقة وذلك دليل على أن الجاني ينتمي إلى عملاء الصهاينة الإرهابيين. ومن حسن الحظ أن الحراس قد تنبهوا في الوقت المناسب وهرعوا لإنقاذ محطة الكهرباء من هجوم وشيك، لكنهم فشلوا في إنقاذ هذا المدني المسكين، الذي حزنت عليه زوجته وعائلته حزناً شديداً. وتتوالى التقارير إلى مكتبنا يومياً، آخرها يتعلق بسرقة سيارة أجرة قرب المطار، كانت مليئة بأغراض موظف يعمل في وزارة الإعلام. ولقد وجد سائق سيارة الأجرة، مكتوف اليدين والرجلين ومكمم الفم، في حفرة عميقة، وذلك دليل على الانحطاط الذي يمكن أن ينحدر إليه أعداؤنا. وهناك امرأة مشهورة، كمغنية وراقصة وموسيقار وشاعرة، تسلّمت طرداً يحتوي، يا للبشاعة، على رفات...

twitter: @dohat_alkutub

والسؤال المهم عند صابرة هو معرفة طبيعة الشيء الذي تسلمته هذه المرأة، المعروفة بإجادتها للغناء والرقص والموسيقى والشعر. ربما ذهبت هذه المرأة إلى باب منزلها، المحاط بالأشجار الظليلة والمياه الجارية، ووجدت الطرد المرعب في انتظارها. وبدأت صابرة، وهي تقرأ التقرير، في وضع صورة مفصلة للمرأة، رسمت شكلها على الرمل، أنف دقيق وفم صغير وشعر غزير وعيون جميلة، ورسمت خطوطاً متموجة تخرج من حنجرة المرأة كدليل على الصوت العذب الذي تتمتع به. رجعت وشمّت رائحة البرتقال الموجودة في الصحيفة، وتخيلت أن المرأة قد عطرت نفسها بعبير البرتقال. وطفقت تتمعن في السطر الأخير، الناقص، من التقرير وتبحر في غموضه وسحره والاحتمالات المتعددة التي تطرحها كل كلمة من كلماته: امرأة مشهورة.. تسلمت رفات.. يا للبشاعة.

مثّل السطر الأخير من التقرير لصابرة عالماً مختلفاً عن عالمها ونوعاً من الثقافة والسلوك الذي لم تتعوده. وجدت صعوبة في تخيل أمر الطرد اللعين، وتقاطرت عليها أفكار متناقضة حول المرأة التي تسلّمته، امرأة مشهورة ولها معجبون من الرجال والنساء، عندهم الوقت الكافي وحرية الحركة ليأتوا لرؤيتها والاستماع إلى غنائها وموسيقاها، إنه بالفعل عالم آخر بعيد كل البعد عن عالمها المغلق المنعزل. هذه المرأة المصرية عندها الحرية لتغني وترقص وتعزف على الآلات الموسيقية وتقرض الشعر، لا بد من أن المكان الذي تعيش فيه قد ساعدها وشجعها على الوصول لهذه النتائج الباهرة، ومن المؤكد عدم وجود لشخص مثل حمد في حياتها. تساءلت صابرة، ونفَسها يعلو ويهبط ودموعها تترقرق، حول الحياة الزوجية للمرأة الأعجوبة وأطفالها وزوجها. مؤكد أن للزوج الذي يشجع زوجته ويقف معها وجهاً حنوناً وعصرياً، يجلس القرفصاء جنب أولاده،

twitter: @dohat_alkutub

في الصف الأمامي في المسرح ويستمع لزوجته تغني، عيونه تشع بالتقدير والإعجاب ولسانه يصوغ كلمات الحماسة والتشجيع.

كانت صابرة، حينما تأخذ راحة من عمل المنزل أو تنظف الطفلة الرضيعة، يأتيها طيف المرأة المصرية بوضوح، تغني وتعزف العود أمام حشد من المعجبين، فيزداد إعجابها أيما ازدياد. تضع الطفلة بين يديها وتضمها لصدرها، تبتسم لها الطفلة، فتتخيل أنها المغنية المصرية، واقفة على المسرح وقد ناولها أحد المعجبين طفلته لتطبع قبلة على خدها الصغير. بدأت صابرة في الغناء لبنت أخيها، فجاء الصوت نشازاً، تلوّت منه الطفلة وامتعضت وبكت. انتهت من تنظيفها ورجعت إلى مكانها المعتاد الذي تجلس فيه، أمام عتبة باب المطبخ، وهي تظن نفسها المغنية المصرية في بيتها، محاطة بأطفالها المعجبين بشعرها وزوجها الذي يحترمها ويقدرها. تخيلت، رغم صعوبة الأمر، أنها قد قابلت المغنية المصرية في أحد شوارع القاهرة، حيث هشت لها ورحبت بها.

قالت صابرة: للمغنية المصرية:

— إنه شرف عظيم لي أن أقابلك، أنا مثلك فنانة، وإن كنت في مستوى متواضع. لقد قمت بتأليف ديوان شعر ونشرته، وإنه لشرف لي أن تتقبلي مني هذه النسخة من الديوان وسيكون لي شرف أعظم لو قمت باختيار إحدى القصائد لتغنيها لجمهورك.

كانت المرأة المصرية العظيمة، الفنانة التي ينتمي صوتها لسلالة الفنانين العظماء الذين غنوا في بلاط الفراعنة، تعرف صابرة منذ زمن موغل في القدم، لذلك ردت عليها قائلة: أعرفك، أنت

twitter: @dohat_alkutub

صابرة، لقد سبق لي أن قرأت بعض أشعارك! فرحت صابرة وانتشت وأخذت تدور بعينيها في أرجاء المكان علها تقبض على هذا الحلم الجميل. أدركت أن الواقع يطبق عليها من كل مكان فبدأت بتجميع عدد من الأوراق وخيطتها مع بعضها البعض، وكونت منها كتاباً، له عنوان وغلاف وكلمات مطبوعة وصفحات مرقمة. التفتت يميناً ويساراً لتتأكد من خلو المكان، ثم كتبت على صفحة الغلاف: مكتبة أسنان الدجاج، تأليف الكاتبة صابرة ناصر المكدوحي.

انعكس ضوء الشمس على نافذة المطبخ وتسلل إلى الجدران، بينما كانت إحدى بنات أخيها ترقد على الأرض، وبعضهن يتشاجرن في الحديقة. قامت من مكانها وتفحصت وجبة الغداء التي تعدها، عبارة عن أرز ومرق سمك، ثم رجعت إلى روايتها، التي تخيلتها وقد خرجت لتوها من دار الطباعة، ثم قرأت من الرواية الفقرة التالية:

عاشت في أرض بعيدة عن العالم بأكمله، ليس حولها من أمل واحد جميل يخفف عنها بؤس الحياة ومللها. كانت البطلة تعمل ليلاً ونهاراً حتى تدمى أصابعها، وتضربها عماتها وأعمامها وجدتها كلما جاءت على لسانها كلمات مثل الأمل والحب والزواج. بالكاد كان يشعر والدها بوجودها. عندما تضحك ينهالون عليها بضرب أكثر، وعندما تبكي يقيدونها، وعندما تنام يقومون بإيقاظها وعندما تكون صاحية يطلبون منها أن تنام. عليها القيام بالكثير، وذلك لا يشفع لها لأنها بنت وممنوعة من نعمة القراءة والكتابة. ذات مرة قابلت أحمد ووقعت في حبه من أول نظرة، جذبتها إليه عيونه التي تشع جمالاً وذكاءً وشعره البني وبشرته الداكنة وابتسامته اللطيفة. قال لها أحبك اليوم

twitter: @dohat_alkutub

وغداً أحبك أكثر. التقيا عندما كان القمر في تمامه، عندها سلمته مفتاح قلبها وأعطته سيف الشجاعة فذهب إلى والدها وطلب يدها. هب والدها، ذو اللحية الكثيفة الداكنة والعيون المحمرة، كالإعصار وغرس خنجره في صدر أحمد ومات أحمد فوراً.

من الأساليب المتبعة في روايات صابرة أن الصفحة الأولى دائماً ما تحتوي على أحداث دموية تقع بصورة سريعة ومفاجئة. كانت على وعي بفظاعة هذا النوع من أساليب السرد، لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً تجاهه أو تقوم بتغييره. كانت الحكايات تنبع من داخلها وتتدفق في حيوية غامرة، لتقتل نفسها في نهاية الصفحة الأولى، كأنها مخلوقات غريبة الأطوار أصابها الخبل والجنون، لا تعرف الطريق الذي ستسلكه شخصيات روايتها، عدا أن البطل يتسربل بالدماء الغزيرة حالما يصل إلى السطر الأخير. ذات مرة كتبت في الصفحة الأولى لإحدى قصصها عن اتفاق تم بين شخصين يزمعان على الانتحار في وقت واحد. المنظر كان مرعباً لدرجة أنها توقفت عن الكتابة على الورق لمدة شهر كامل، واكتفت بالكتابة على الرمل خارج المطبخ.

بالنسبة لصابرة، لم تكن الكتب الصغيرة التي تؤلفها وسيلة لتمضية الوقت والتسلية أثناء قيامها بالطبخ وتنظيف الأطفال والعناية بهم بل كانت شخصيات الروايات وأبطالها ملء السمع والبصر عندها، لدرجة أنها كانت تأخذ منهم النصيحة وتقع في حبهم، يزيد حبها لهم ويشتعل عندما يغادرون مسرح الأحداث ويموتون. أدمنت صابرة لعبة منح الحياة لأبطالها ثم انتزاعها منهم، وأحبت الإثارة التي تغمرها في لحظات الخيال الجامح والاحتمالات التي لا حصر لها.

twitter: @dohat_alkutub

كلما وجدت قطعة ورق، تسارع بالرجوع إلى هوايتها المفضلة: الكتابة. ونتيجة لندرة الورق، كانت الصفحات صغيرة للغاية، لا يتعدى طولها عشرة سنتيمترات وعرضها ثمانية سنتيمترات. كان الخط صغيراً والصفحات الأولى مليئة بالتفاصيل، والسطر الأخير يحتوي موت البطل، يمد يديه ليمسك يد حبيبته ويد المؤلفة نفسها. كان من الصعب عليها الحصول على الأقلام، لذلك درجت على مص رأس القلم في محاولة لتقويته على الكتابة وصياغة الأفكار وتطوير الأحداث.

انتهت من كتابة الصفحة الأولى، ورقمت الصفحات الخالية، وفركت عينيها، ذلك يعني لها أن الطباعة قد تمت وأن الكتاب جاهز للتوزيع. قامت بكتابة سيرة ذاتية مختصرة على صفحة الغلاف الخلفي، جاء فيها ما يلي:

> صارت الكاتبة مشهورة في الجزيرة العربية وخارجها. تزوجت الشاعر المعروف، الدكتور جبريل أبو عقبة، واهتمت بشؤون منزله، وأسعدته سعادة كبيرة حيث إنها كانت تقرأ له كتبه وتناقشه في مواضيعها وأسلوب تأليفها. وقد سمح لها زوجها بأن تقرأ لأصدقائه آخر أشعاره على وجبة الغداء التي تعدها لأنها، كما يقول زوجها المحب: ذات صوت فريد وعذب.

احتفظت بالكتاب في حرز أمين لعدد من الأيام. كانت تقرأ الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة منه، وتمر على الصفحات الخالية بين دفتي الكتاب، وتقلب الفكر في الأحداث التي كان من المفترض أن تسطرها في متن الكتاب وصفحاته الخالية. ولكن ما إن تنتهي من الكتابة، لأمر غريب لا يعرفه أحد سواها، حتى تقوم بإلقاء الكتاب في النار أثناء طبخها لطعام الغداء، بعد أن تتأكد من

twitter:@dohat_alkutub

عدم وجود شخص يراقبها ويكشف سرها، ثم تراقب النار تأكل الرسوم الغامضة على صفحة الغلاف مثل العيون الباكية أعلى الصفحة وجسد المرأة تحت السيرة الذاتية أسفل الصفحة. لا تتدخل أبداً لإنقاذ كتبها من لهب الجحيم الذي يلتهمها سطراً بعد سطر. لحسن حظها، لم ينتبه لها أحد وهي تقوم بهذه المهمة قرب النار، حيث الأشباح ترقص فرحاً على طبول الخراب والدمار.

twitter: @dohat_alkutub

٢

كان من عادة صابرة أن تمر، مع أصيلة، بجانب مدرسة الأولاد في مطرح عندما تسنح لها الفرصة ويغيب حمد عن البيت. كانت تنظر بإعجاب وفضول إلى حيطان المدرسة العالية وبوابتها الكبيرة ونوافذها المفتوحة على مصراعيها، فالمدرسة مكان له سحر خاص عند صابرة مهما طالت الأيام والشهور. الذهاب إلى مطرح ليس بالأمر السهل ولذلك تخطط له أياماً وليالي وتتوسل إلى أمها السماح لها، متعللة بأنها تريد شراء عطور ولبان لتبخير البيت مساء أيام الخميس لتفسح المكان لدخول الملائكة كما هو الاعتقاد السائد في المجتمع. والذهاب إلى مطرح فرصة لرؤية المدرسة التي تضم خلف جدرانها عالماً مختلفاً عن العالم المحصور الذي تعيش فيه.

وأهم من ذلك، في المدرسة مدرّس رأته في أحد الأيام وشعرت تجاهه بمتعة تشبه متعة كتابة القصص وقراءة الجرائد. رغبتها في رؤية المدرس راحت تزداد مع مرور الأيام وخصوصاً عندما وجدت

twitter: @dohat_alkutub

ذات يوم قلم رصاص وكراسة حساب ملقاة قرب البوابة، وتمنت لو استطاعت أخذها وإعطاءها له كتعبير عن المشاعر التي تكنها له. كلما وصلت أمام المدرسة تسترق النظر من خلال النوافذ الكبيرة المفتوحة، وتحدق في السبورات وتندهش من ألغاز الرياضيات واللغة العربية والجغرافيا واللغة الإنجليزية المكتوبة عليها. كانت معجبة على وجه الخصوص بالطريقة المدهشة التي يكتب بها المدرس على السبورة، كلمات واضحة وخطوطاً قوية وأرقاماً مرتبة. ترى يده القوية تتلاعب بمهارة بالطباشير، فيهتز جسدها طرباً ونشوة.

تحول إعجاب صابرة، مع مرور الوقت، بسبورة المدرس إلى إعجاب بالمدرس نفسه. اسم هذا المدرس شهم أبو طفلة، يعرفه الجميع بطفلة. كان التلاميذ يتهامسون ويضحكون من اسمه الغريب ويقولون بعضهم لبعض: كيف يحلو لرجل أن يكون له اسم مؤنث، لن تجد رجلاً عمانياً يحمل اسماً مؤنثاً ابداً، لو كان اسمي كذلك لغيرته من دون تردد! تخيل اسمك طفلة وتسكن في حارة العور أو ولجات أو في حارة الشمال، أعدك بأنك لن تستطيع المشي في الشارع من دون أن يتندر عليك الأطفال.

تميز شهم أبو طفلة، مدرس الكيمياء، بالطول الفارع والشعر البني واليدين القويتين، اللتين تشبهان أيدي لاعبي التنس، وبالهندام الجميل والعلم الغزير. كان الطلاب يحبونه لرزانته واهتمامه الزائد بهم ولمعاملته لهم بعطف واحترام. بدأ شهم يلاحظ، أثناء تدريسه مرور صابرة من أمام الصف مع أصيلة ووقوفهما متخفيتين خلف الجدران والأبواب، وأدرك أنهما تأتيان من أجل رؤيته. وعلى الرغم من تخفيهما كانت عيناه تلمحان بعض ملامح البنتين من خلال الأجساد الملفوفة بإحكام تحت العباءة وغطاء الوجه الأسود

twitter: @dohat_alkutub

الكثيف، تمنى لو يستطيع رؤية شكليهما كاملين لكنه يدرك أن ذلك مستحيل. بدأ يرسم صورة في خياله للبنتين، يتخيلهما كالبدوية التي شاهدها تسقي الجمال في يوم كان فيه في رحلة مدرسية مع الطلاب إلى صور. هذه التخيلات سريعاً ما تتبخر عند تهرول الفتاتان من أمام الشباك، محكمتي العباءات على الأجسام والأغشية على الوجوه. كانت لحظات سريعة لا تلبث أن تنتهي، فصابرة وأصيلة لا يملكان الجرأة على التمهل والنظر داخل غرفة الدراسة، وشهم يواصل الشرح للطلاب والكتابة على السبورة، وهو لا يعرف من منهن المغرمة به.

بالرغم من هذا الوضع الصعب، استطاعت صابرة أن ترى بعض الملامح الجسدية لشهم وأن تفهم شيئاً عن شخصيته، من خلال حركته وسكونه. لقد أعجبت أيما إعجاب بالطريقة التي يكتب بها علامة النقطة في نهاية كل جملة على السبورة. كان يرفع يده، في حركة سريعة مدهشة، بعيداً عن السبورة، ويوجه الطباشير نحو مكان محدد ويضغطها على السبورة مرة أخرى، يعمل علامة النقطة وتتفتت الطباشير وتتطاير أجزاؤها من حوله، ومع كل حركة يقوم بها يذوب قلب صابرة.

كانت تعرف أن معظم المدرسين ليسوا عمانيين، وقد استنتجت أن شهم، بقميصه وسرواله، لا بد أن يكون إما من لبنان أو الأردن أو فلسطين. بسبب ملابسه الغريبة وأسلوب كتابته وشكله وظهوره عبر النافذة التي تمر من تحتها، أعجبت به أكثر من باقي المدرسين بل أكثر من أي رجل رأته في حياتها على الإطلاق.

لم يعد شهم مدرس الكيمياء الذي يقبع في الصف ومن حوله

twitter:@dohat_alkutub

قوارير التجارب ورسوم الشرح، تحوّل في ذهن صابرة إلى أمير جدير بالاهتمام ويستحق المغامرة والاستكشاف. إنها قصة تتعلق بساحر قوي تحول إلى مدرس مشهور جاء من فلسطين إلى عمان للتعليم والتنوير. كانت تتمنى أن تسنح لها الفرصة كي تحصل على بعض شظايا الطباشير المتطاير من يده وتضعها جنب إلى جنب مع قصاصات الصحف المحفوظة في خزانة ملابسها، كما تمنت لو تستعمل بودرة الطباشير كمسحوق للتجميل. بسرعة فائقة، تحول شهم إلى رمز يحتل كل مساحة أبطال قصص صابرة، ولم يعد أبطالها يلاقون حتفهم كما كان يحدث في السابق.

كتبت صابرة في يوم ما يلي:

كان أحمد موسيقاراً، جاء من فلسطين، أرض بعيدة تجري فيها الأنهار قرب البيوت. أرض جميلة هادئة. كان يعزف على العود ويغني ويكتب كلمات أغانيه على سبورة كبيرة سوداء. نال أحمد إعجاب الجميع، أرسلوا في طلبه لمساعدتهم في كتابة الأغاني والأشعار الجميلة. كان يستجيب لهم ويكتب لهم من موهبته ما يطلبونه منه، لأنه كان عبقرياً في هذا المضمار. إذا صعبت عليه فكرة موسيقية أو كلمة شعرية، يرفع يده إلى أعلى طالباً من الله سبحانه وتعالى المعونة، وفي كل مرة كان الله يستجيب دعاءه ويمنحه الإلهام. كان في انتظار موعد وفي ذات ليلة من الليالي، كانت العاصفة تهز أركان المكان، تحطمت سفينة على صخور الشاطئ تحت منزله وقذفت بفتاة على الرمال الدافئة الجميلة. رقدت هناك حتى طلعت الشمس ووجدها أحمد عندما كان يمشي جنب البحر ويغني آخر أغانيه وعاش معها أجمل قصة حب. في خيال صابرة أحمد هو شهم والفتاة صورة منها.

twitter: @dohat_alkutub

بدأت الضغوط النفسية تزداد على صابرة لأنها أرادت أن تعرف مدى تجاوب شهم مع أحاسيسها ومشاعرها تجاهه. على الرغم من إعجابها بشخصيته وشكله وهندامه والطريقة المثيرة التي يتعامل بها مع الطباشير، كانت تعلم أنها لن تستطيع التحدث إليه مباشرة وتعتبر ذلك جزءاً من الأحلام المقبورة والطموحات الكاذبة بل والحجر الذي يقف في طريقها. كانت تذهب كل شهر إلى المستشفى القريب من المدرسة لمقابلة طبيب العيون الذي يكشف على نظر والدتها المتدهور، وهذا يعطيها الفرصة لقضاء اليوم في المستشفى بسبب كثرة المرضى وقلة الأطباء والممرضات. عندما تصل بوالدتها تتركها برفقة المرأة التي تغسل أغطية المستشفى، تدعى الخالة محفوظة بنت خميس الجبسية. كانت محفوظة تسكن في حارتهم وبعد أن عثرت على العمل بالمستشفى انتقلت إلى مطرح وسكنت في حارة الزباد، وما زالت لها رابطة قوية بأم صابرة. تقوم محفوظة بالعناية بصديقتها القديمة مريم أم صابرة، تقدم لها الطعام وتحدثها عن أخبار الحارة الجديدة وعن اشتياقها لهم جميعاً وتسأل عن موعد مقابلتها للطبيب. كل هذا يعطي فرصة لصابرة كي تقابل صديقتها أصيلة وتذهب معها إلى السوق بالرغم من حرارة الجو والرطوبة والغبار والخوف من أن يعرف أحدهم الغاية التي من أجلها ذهبن إلى مطرح.

وصلت صابرة مع أصيلة إلى المدرسة. وقفتا ترتجفان في الجانب الآخر من الشارع، تنظران إلى الفصول والنوافذ والأبواب واسم المدرسة في لافتة كبيرة معلقة فوق البوابة الرئيسة، والطلاب يتجولون من مكان لآخر في استرخاء، استعداداً للدخول إلى الصفوف. توقفتا لبرهة لشراء بعض الخبز والجبن وقدحين من الشاي، ثم جلستا تحت ظل حائط لتناول الطعام والشراب. فجأة، أخرجت صابرة من تحت

twitter: @dohat_alkutub

عباءتها إحدى قصصها المكتوبة على أوراق صغيرة الحجم وبدأت تقرأ في بعض الفقرات لأصيلة ورد فيها ما يلي:

ينحدر صلاح من عائلة كريمة عاشت في جبال فلسطين. عندما كان عمره ستة عشر عاماً، أخبر والديه برغبته في أن يشق طريقه في الحياة بمفرده، وحمل كتبه وذهب إلى عمان حيث عمل في وظيفة معلم في إحدى مدارسها الشهيرة. من اللحظة الأولى حقق نجاحاً منقطع النظير، أحبه الطلاب وامتدحه مدير المدرسة. كان يحب التدريس وله مقدرة فائقة في الكتابة على السبورة وفي الشرح والاقتباس من شعراء فلسطين العظماء وكتابها. كان صلاح، بالطبع، يشتاق إلى موطنه ورائحة زهوره وطعام أمه ويشتاق إلى أرضه ويحن إليها. وفي يوم صرف نظره عن طلابه ونظر عبر النافذة فرأى شيئاً من السحر والجاذبية، هناك في الشارع كانت تقف فتاة في ملابسها التقليدية، التقت عيونه بعيونها فوقعت الطباشير من يده على الأرض.

قالت أصيلة: وما نهاية القصة يا صابرة؟.

ردت صابرة قائلة: النهاية ضاعت بين الأوراق الأخرى التي لم آتِ بها من البيت.

تحولتا من تحت الجدار إلى مكان أقرب من شباك الفصل فوجدتا أنفسهما ضحية لأشعة الشمس الحارقة. رغم ذلك كانت صابرة مصرة على النظر من خلال النافذة لترى شهم داخل الصف، واقفاً يتمايل من جهة إلى أخرى وكأنه يدرك أن هناك أعيناً معجبة تراقبه وتترصد حركته. أصاب صابرة الإحباط حينما وجدت النافذة شبه مغلقة، ربما بسبب الرياح التي بدأت تعصف بالمكان وتهاجمه بعنف وضراوة.

twitter: @dohat_alkutub

قالت أصيلة: يجب ألاّ نضيع وقتاً أكثر من ذلك في الانتظار، الله العليم متى سيظهر لنا المدرس، ربما أغلق النوافذ لا بسبب الريح بل ليلعب بمشاعرك لأنه يدرك أننا أتينا خصيصاً لنراه. هو كباقي الرجال يا صابرة ولا يختلف عنهم. دعينا نعود لأن والدتك انتهت من موعدها والخالة محفوظة ستنزعج إن لم نرجع ونصطحب أمك إلى البيت فور انتهائها من الطبيب. فهيا بنا نغادر المكان ونترك تفاهة انتظار هذا المدرس المغرور.

قالت صابرة: كيف أعود قبل أن أشبع عيني ولو للحظة سريعة منه؟ من يعلم متى أستطيع التمكن من ذلك مرة أخرى يا أصيلة؟ لا أكاد أتحمل فكرة عودتي إلى البيت قبل رؤيته، لا أتحمل يا أصيلة صدقيني، هل تسمعين؟ صرخت صابرة كأنها تطلق شيئاً مكبوتاً في داخلها، فسارعت أصيلة إلى إغلاق فمها بكفها وجرها من يدها لتبتعد بها عن المكان قبل أن يسمع صراخها أحد.

اتجهتا صوب المستشفى، وصابرة تعانى من الإحباط والفشل لأنها لم تستطع أن تعطي القصة التي كتبتها لشهم لقراءتها والاستمتاع بموضوعها وأسلوبها. في الرسالة القصيرة أعطته رقم تلفون الصيدلية القريبة من بيتهم ليتصل بها ويناقشها في أمور كثيرة أهمها الإعجاب الذي تشعر به تجاهه. وبما أنها لم تجد فرصة لتوصيل الكتاب له قالت في داخلها إن عليها حرق الكتاب الصغير والعودة إلى المستشفى لاصطحاب والدتها إلى المنزل حيث ينتظرها عمل شاق ومهانة مهلكة، ربما تسنح فرصة أخرى للخروج لرؤية المدرس الرائع. جرت الدموع من عينيها وشعرت بالألم يعصر جسدها وخاصة في أياديها وأرجلها.

twitter: @dohat_alkutub

أمسكت صابرة أصيلة من يدها وقالت لها: عليك تحمل الفشل يا أختي فالفشل جزء من الحياة لا نستطيع تفاديه مهما فعلنا، صدقيني.

فجأة سمعتا صوت باب المدرسة يفتح، فالتفتتا ورأتا مدرس الكيمياء يقف في الممشى، في فترة استراحة يدخن ويمشي ويصلح هندامه. رأت صابرة عن قرب يديه القويتين فاهتز جسدها طرباً وغمرتها مشاعر جميلة ورقيقة. مشت نحوه بمفردها ونسيت في تلك اللحظة كلياً وجود أصيلة بجانبها. أصيلة لم تأبه لرونق شهم لأن بالها مركز على المنطقة المحيطة بالمدرسة وهي خائفة أن يراهما أحد الطلاب وينشر الخبر في الحارة ويفضح الأمر أمام خلق الله جميعهم. كانت أصيلة تعلم علم اليقين أن حدوث ذلك يعني كارثة في الأسرة ومنعاً لهما من الخروج على الإطلاق والتفريق بينها وبين صديقة طفولتها. إن حدث ذلك لا سمح الله فسيكون يوماً قاتماً في حياة صابرة وأصيلة.

وصلت صابرة مدخل المدرسة وبحركة مسرحية أخرجت الكتاب الصغير ووضعته تحت أحد الحجارة ثم غادرت المكان بسرعة حتى لا يراها أي من الطلاب. راقب شهم ما فعلته الفتاة بينما كانت رفيقتها تنتظرها وأدرك أن المعجبة به هي التي تركت الرسالة. أخذ ينظر إلى الريح تحرك العباءات الفضفاضة وتضرب على الأجساد الملفوفة والوجوه المغطاة. ابتسم للمنظر الذي رآه ورثا لحال الفتاتين لأنهما لم تتمكنا من رؤية الرجل الذي تحاول إحداهما أو كلتاهما مغازلته. انتهت فترة الاستراحة، فصعد شهم درج المدرسة بينما كان الحارس ينظف باب فناء المدرسة الخلفي. غادرت صابرة المكان مع صديقتها أصيلة، فذهب شهم إلى طرف الشارع وأخذ

twitter: @dohat_alkutub

الكتاب الذي وضعته صابرة وقرأ الصفحة الأولى وضحك ثم قفله. بعد برهة وجد الورقة التي كتبت عليها صابرة «اسمي منيرة أحمد، الرجاء الاتصال بي بعد صلاة العصر على هذا الرقم: ٩٦٦٣٠١٨٦».

أمسك شهم الكتاب الصغير في يده الضخمة وضغط عليه فانقطع الخيط الذي يغلفه وتطايرت الأوراق على الأرض. استغرب لوجود كتابة على الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة وفراغ الصفحات الأخرى من الكتاب، لكنه أقسم أن يجمع كل الأوراق، المليئة والفارغة، التي تناثرت في أرجاء المكان بفعل الرياح الآتية من هنا وهناك.

حينما كان شهم يجمع الأوراق لاحظ أن الحارس قد توقف عن العمل الذي كان يقوم به وبدأ ينظر باستغراب من المنظر الذي أمامه. بحث شهم عن الخيط الأخضر لكنه لم يجده، بينما كانت عينا الحارس تضيقان بصورة مريبة وغامضة. دس شهم الكتاب في جيب سرواله واعتدل في وقفته ثم ضحك ورجع إلى قاعة الدرس. هز الحارس كتفيه وواصل عمله دون اكتراث. في الفصل، نظر شهم إلى الكتاب بتمعن وعرف أن بطل الرواية الذي تحدثت عنة الكاتبة ما هو إلا شهم نفسه لأن كل المواصفات تنطبق عليه.

فكر في حل معضلة الأوراق الفارغة ثم هداه تفكيره إلى أنها مكتوبة بالحبر السري. أخفى الأمر عن طلابه لكنه رأى في قرارة نفسه أن الفتاة فعلاً ذكية وليست بسيطة كما بدت له تحت العباءة الطويلة والغشاء الأسود السميك.

twitter:@dohat_alkutub

الوقت الذي حددته له صابرة للاتصال بها غير مناسب لأنه وقت القيلولة الذي يأخذ فيه قسطاً من النوم بعد يوم طويل في التدريس، ويخلد فيه إلى نفسه، بعيداً عن الطلاب والذباب والحر والمدرسين ومدير المدرسة والحارس الحشري. بعد عودته إلى حجرته لم يستطع النوم لأنه أراد أن يكتشف الناقص من المكتوب في الصفحات الخالية من كتاب صابرة، لذلك قام بعمل مزيج من عصير الليمون والخل ووضع قليلاً منه على صفحة من صفحات الكتاب وبدأ يراقب نتيجة تفاعل التجربة. بعد مدة قصيرة تحول لون الورقة إلى اللون الأصفر ثم شب دخان وانتشر على هوامش الكتاب. هنا قال بصوت عال وهو لا يكاد يتمالك نفسه: إنه ليس حبراً سرياً، هذا أمر غريب.

بعد الرجوع من المستشفى طبخت صابرة الغداء للأسرة وتناولت شيئاً من الأرز وجلست في انتظار انخفاض الحرارة ونوم أهلها وقت القيلولة للخروج إلى الصيدلية لتلقّي مكالمة شهم. خرجت متسللة من المنزل بكل حذر ومشت في الشوارع الخالية، كأن سكان البلدة جميعهم فروا وهجروها في ذلك الوقت من النهار. بعد خمس دقائق وصلت إلى الصيدلية وهي في حالة من الرهبة والترقب والتردد لم تعهدها من قبل.

كان الصيدلي الهندي العجوز يجادل بعض الزبائن بصوت عال فيه إيحاءات الشجار والغضب. جال بخاطرها أن الصيدلي يتكلم بهذه الصورة حتى يربكها ويحرمها من الاستماع إلى المحادثة المرتقبة، فظنت أن الرجل يتآمر ضد اللحظات الجميلة التي ستعيشها وهي تستمع إلى صوت شهم للمرة الأولى.

twitter: @dohat_alkutub

شغلت نفسها، وهي تنتظر صوت جرس الهاتف، بالنظر إلى مجموعة القوارير الموضوعة على أرفف الصيدلية، تحوي أدوية مائية وأدوية أعشاب جافة وقليلاً من أدوات الزينة المستوردة من الهند واليابان والصين.

كان عدد المرات التي تعاملت فيها مع التلفون قليلة للغاية، لذلك أصابها الخوف من حدوث مشكلة في إتمام المحادثة، كما كانت خائفة من أن شهم لن يتصل بها من أساسه. أهم من هذا كله خافت أن يعرضها الصيدلي إلى تجربة اغتصاب قاسية لن تستطيع فضحه لأنها هي نفسها تعيش في قلب الفضائح التي تفوق جريمة الاغتصاب. كما خافت أن يأتي حمد عندما يعلم أنها أتت إلى هنا لتلقّي مكالمة غرامية ويجرها من شعرها على شوارع البلد بطولها وعرضها وينزل بها أشد العقاب ويمنعها من مغادرة البيت ومن رؤية أصيلة. بدأت تشعر بالخوف يعتريها فتوجهت نحو الباب لتغادر المكان في أسرع وقت ممكن، قبل أن تندم على الفعل الذي تفعله.

وهي في حالة من اليأس والإحباط والخوف، فجأة رن جرس الهاتف كأنه صوت باخرة تنذر بالإقلاع. أصابها فزع شديد. أخذ الصيدلي سماعة الهاتف وناولها لها قبل أن يرد على المكالمة وهو يقول: لماذا أنت خائفة؟ ألم تأت إلى هنا بنفسك، هل ستلتهمك السماعة؟ أم تظنين أني سآكلك لأنني بعيد عن أعين وآذان الناس؟ هرعت نحو الرجل وأمسكت السماعة، فسمعت على الطرف الآخر صوت رجل يقول: هالو، هالو.

ردت قائلة «هالو» بصوت خافت ثم أردفت «هالو» أخرى بصوت

twitter: @dohat_alkutub

مرتفع، وهي تمسك الهاتف بيديها، وتحشره تحت غطاء وجهها، مثل شخص يخاف أن يهرب الصوت من السماعة ويضيع في الهواء. الأمر الذي سبب لها ارتباكاً شديداً وخجلاً هو نظرات الصيدلي التي تلاحقها من مكان إلى مكان، وهى تمسك بسماعة الهاتف. اكتشفت أنه لا يراقب ما تقوم به فقط بل يتنصت على كلامها ليلتقط ما تقوله للشخص الذي يتحدث معها من الطرف الآخر. ولكي تتخلص من مراقبته ابتعدت قليلاً عنه ووقفت تحت أحد الرفوف الخشبية، وتمسكت به فتبعثر ما عليه من غبار على يدها وملابسها فأخذت تسعل لبرهة من الزمن. تحرك الصيدلي شفقة منه عليها وجلب لها كوب ماء، شربته بسرعة كي لا يتقطع صوتها من السعال ويؤذي أذن شهم الذي يسمع صوتها لأول مرة. بدأت تتحدث في السماعة قائلة: من المتكلم؟

جاءها الرد سريعاً: أنا شهم أبو طفلة. هل أنت منيرة أحمد؟ هل أنت الفتاة التي تركت لي قصة في كتاب صغير به صفحات خالية؟ بدأ يضحك في محاولة لمساعدتها في تبديد الاضطراب الذي أحس به في نبرة صوتها.

بدأ قلبها يضرب في صدرها وشعرت بصعوبة في التنفس وتزايد الألم في رجليها. ردت: نعم أنا منيرة، الرجاء عدم التحدث بصوت عال لأنني لست وحدي. من أين أنت؟

جاءها الرد: أنا من يافا في فلسطين وهذه أول سنة لي في وظيفة التدريس في عمان، أنا غريب ووحيد وفي شوق شديد لوطني الذي طلعت منه مع والدي وعدد كبير من أبناء وبنات وطني بعد نكبة ٤٨. أظن أنك تعرفين عن هذه النكبة التي حلت بأرضي

twitter:@dohat_alkutub

بعد اغتصاب اليهود له والمحنة التي وقعنا فيها حتى اليوم.

قالت: نعم سمعت ذلك من راديو صوت العرب من القاهرة الذي أستمع لجميع نشرات أخباره. بالفعل كانت صابرة تستمع إلى نشرات الأخبار المذاعة من صوت العرب ومحطات عربية أخرى، فإذاعة صوت العرب ظلت إذاعتها المفضلة بسبب جدية الأخبار والبرامج التي تقدم منها.

أمر استماعها للأخبار لا يعرف عنه أحد سوى والدتها وأصيلة وزوجة حمد. ظن حمد أن استماعها للراديو قد انتهى منذ اليوم الذي ضبطها فيه وهي تستمع للأخبار، يوم مهول ستتذكره طول عمرها. قال لها حمد يومها: أنت مثل الرجل ولست امرأة، النساء لا يستمعن للأخبار يا ملعونة. أخذ الراديو منها ورمى به على الأرض بقوة حتى تفتتت أجزاؤه إلى قطع صغيرة. ذلك لم يشفي غليله تجاه المذياع وصابرة، ضغط على الراديو بقدميه حتى سواه بالأرض. يومها بكت بكاءً حاراً من شدة القهر والمرارة والظلم والاستبداد. أشفقت عليها أمها واشترت لها راديو صغيراً من مسعود زوج جارتهم صالحة الذي أتى به من السعودية حيث كان يعمل. الرجل بدد ما لديه من مال قبل عودته إلى السعودية واضطر لبيع ما يستطيع بيعه من متاع، ليتسنى له شراء تذكرة سفر للرجوع لمكان عمله. هذا المذياع رد الصفاء إلى روح صابرة، عاودت متابعة الأخبار لكنها أخذت المزيد من الحيطة والحذر.

شعرت بجفاف في فمها وحلقها خصوصاً عندما سمعت من شهم عن النكبة وحديثه الثقافي العميق الذي نادراً ما تخوض في مثله حتى عندما كانت في المدرسة. ما زالت تتذكر حتى اليوم المرة

twitter:@dohat_alkutub

الوحيدة التي أتتها الفرصة للخوض في نقاش عميق حول المستشفيات والأدوية، مع طبيب عربي أتى إلى المستشفى، لا تعرف من أي بلد عربي كان. تكلم معها عن الأدوية التي تأخذها أمها والأدوية المستوردة للمستشفى والأعراض التي يمكن أن تسببها بعض هذه الأدوية على المدى الطويل إن لم ينتبه الناس لها ويعرفوا الطريقة السليمة لتناولها. بعد ذلك سألها عن عمان وتاريخ القلاع والغزو البرتغالي للبلد والعلاقات الدبلوماسية والتعليمية التي تربط بين عمان والعالم العربي. تمنت يومها لو كانت أكثر ثقافة وعلماً لترد علية بثقة. لم تكن كذلك، فأخذت تهز له برأسها لتقنعه بأنها على اتفاق مع كل ما قاله لأنها قد فهمت النقاش.

وجاءت المكالمة الأولى بينها وبين هذا المدرس على نفس النمط الذي مرت به قبل سنين طويلة مع الطبيب العربي. سارعت للتخلص من الخوف الذي انتابها وبدأت تشعر بسحر البلد الذي ينتمي إليه شهم. قالت في داخلها: يا لسحر المكان المسمى فلسطين، ورياح البحر التي تعبر المسافات محملة برائحة البرتقال المنعشة التي أكاد أشمها الآن وأنا أتحدث معه. وهي في وسط هذه التخيلات فقدت لثانية تركيزها على المكالمة حتى أحست أن المتحدث لم يعد على طرف الخط الآخر. فجأة سمعته يقول: منيرة هل يمكننا أن نتقابل، هل تسمعين؟

قالت في داخلها إنه أمر صعب أن تقف في محل الصيدلي وتتكلم بالهاتف مع شخص غريب، وهو أمر أكثر صعوبة أن يصل الأمر إلى طلب مقابلته وجهاً لوجه. شعرت برعب ممزوج بالإثارة والمغامرة وبدأت تقول في داخلها كيف يا ترى ستكون هذه

twitter:@dohat_alkutub

المقابلة وأنا أعيش في وسط محافظ ومغلق؟. جاءها الصوت مؤكداً مرة أخرى كأنه يحاول صدها عن تغيير رأيها: علينا ألّا نفوّت هذه الفرصة التي وضعنا فيها القدر يا منيرة، وعلينا أن نكون أقوياء وحذرين في الوقت نفسه. هذا حكم القدر وعلينا أن نمشي الخطى التي كتبت علينا. أدرك من أول كلمة نطقتها أن لهجتها العمانية الخالصة تصعّب عليه التفاهم معها لكنه سيتعود عليها كما تعود على كلام الطلاب.

كانت مصابة بالخوف والرعب حينما قالت:

— أنا غير متأكدة لأن علي الاعتناء بأمي وبنات أخي وعلي مسؤوليات وأعمال أخرى كثيرة. الأمر في غاية الصعوبة بالنسبة لي وعليك أن تفهم وتقدر موقفي. أنا خائفة أن ينكشف الأمر ويعرف أحدهم المسألة. لكن يمكنني الخروج يوم الخميس القادم بعد الظهر، لمدة قصيرة لا أكثر! هل هذا يناسبك؟ يوم الخميس.

قال: أستطيع مقابلتك يوم الخميس القادم، لا أظن لدينا رحلات مدرسية. وواصل قائلاً: بالمناسبة هل تعرفين اسمي؟ أنا اسمي شهم أبو طفلة، نسي أنه أخبرها عن اسمه أول ما حادثها. استطرد قائلاً دعيني أقول لك قبل لا أنسى، أعجبتني قصتك القصيرة، هل صار لك زمان وأنت تكتبين القصص؟ هل جربت كتابة رواية؟ لماذا لا تكتبين رواية عني وعنك مثلاً؟ سأساعدك في كتابتها، أعدك بذلك، لديك فعلاً مادة حية. هل نشرت بعض ما كتبت؟ عندما سمعت كلمة نشرت ضحكت ضحكة خفيفة وفي داخلها تقول: غريبة البيئة التي أعيش فيها، فهو لا يعرف أنني لا أنشر ما أكتب لكي لا أفضح أسرتي وأسبب مشاكل لنفسي من حمد والآخرين

twitter:@dohat_alkutub

من أفراد العائلة.

قالت رداً على هذا السؤال المهم الذي سألها إياه: لم أنشر أي شيء حتى الآن ولم أطلع أحداً على ما أكتبه سوى زوجة أخي موزة وصديقتي أصيلة التي رأيتها ذلك اليوم معي. عندما سمع اسم موزة تبسم في سره من غرابة الاسم لكنه لم يعلق عليه.

قال: سأساعدك في نشر ما تكتبين في مجلات مرموقة بالشام ولبنان ومصر وفلسطين، ما عليك سوى مواصلة الكتابة وستكون دهشتك في يوم كبيرة عندما تقرئين اسمك مكتوباً بالخط العريض ومن تحته عنوان القصة التي تعبت في تأليفها. وأضاف قائلاً: نحن توغلنا في أحاديث ثقافية وابتعدنا عن الموضوع الأهم وهو لقاؤنا المرتقب. سنتقابل يوم الخميس القادم، قرب بوابة المدرسة في المكان الذي كانوا يضعون فيه خزان المياه القديم، من هناك عليك المشي ورائي حتى نصل إلى مكان مناسب نتحدث فيه.

قالت: لكني أخاف أن تقع عين أحد علي وأنا أمشي خلفك؟

قال: ذلك الوقت يكون المكان فاضي بالمرة، حيث الناس نائمون خصوصاً المدرسين. اتفقا على اللقاء وأنهيا المكالمة.

بدأ شهم يتخيل شكل صابرة، التي يعرفها باسم منيرة، وهو ينفث دخان السجائر في غرفة مدير المدرسة الخالية بعد انتهائه من المكالمة. رأى المدير في ممر المدرسة وهو يتشاجر مع حارس المدرسة مصبح ويعنفه لعدم القيام بواجب التنظيف على الوجه الأكمل. خاف شهم أن يكون المدير قد التقط بعضاً مما تحدث به مع منيرة.

twitter:@dohat_alkutub

تخلص من ذلك الخوف ودار في خاطره أنه لم ير امرأة في مسقط وهي كاشفة الوجه تمشي إلى السوق سوى قليل من المسنات.

كل ما يعرفه شهم عن منيرة هو أنها ليست طويلة بل متوسطة الطول، أطول بقليل من صديقتها أصيلة. تذكر أن صوتها صوت امرأة شابة، لكن انتابه بعض الخوف من أن تكون أكبر سناً مما يتصور، أو سمينة ومترهلة. طرد تلك التصورات من باله، عندما توصل إلى أن التعرف على واحدة مثل منيرة، مهما كان شكلها، سيحدث تغييراً إيجابياً في حياته الرتيبة وسيحقق له متعة هو في أمس الحاجة لها. ستكون مغامرة أن يرى امرأة عمانية ويخوض معها قصة حب، فطول المدة التي أقام فيها في مسقط لم ير من نسائها جزءاً مكشوفاً سوى اليدين، ولم تأته فرصة للتعرف إلى إحداهن على وجه الإطلاق. هذه تجربة تستحق العناء والتعب، ستطلق قيود منيرة لتكون حرة كما بنات جنسها في منطقة الهلال الخصيب.

وهو وسط هذه الأفكار والأحاديث الداخلية بينه وبين نفسه

رأى مدير المدرسة يمشي نحو مكتبه. أطفأ السيجارة التي كانت بين أصابعه بسرعة وتمعن في قطة تتبختر في فناء المدرسة. عاد من جديد بفكره إلى منيرة واللقاء الآتي. قال في داخله: من الضروري أن تعرف أنه شخص متعلم ومتحضر وذو أفق واسع، كما عليه أن يقنعها بأنه رجل متحرر يقدر المرأة، حتى لو كشفت له عن غطاء وجهها لن تكن قد عملت عيباً أو خطأ، فهو يدرك خجل فتاة مثلها من كشف خمارها.

twitter:@dohat_alkutub

اقترب منه مدير المدرسة وجلس بجانبه وشكا له من كسل الحارس مصبح وعدم اهتمامه بنظافة المكان، ولفت الانتباه إلى الأوساخ والزيوت المتراكمة على المناضد والمقاعد. سأل المدير شهم عن أحواله وأحوال والدته. قال إنه سيحسم من مرتبه ثمن المكالمة التي أجراها منذ دقائق، يعنى مكالمة صابرة، ثم ذكره بالذهاب إلى الفصل لإلقاء الدرس. خرج شهم من المكتب من دون أن يعلق على كلام المدير ولو بكلمة واحدة، وعاد إلى الفصل.

وتذكر شهم أنه لم يقم علاقة مع امرأة منذ عام كامل حينما جاء إلى عمان. جالت بخاطره الأفكار التي لقنها له والده، الطبيب النفساني الذي تعلم في باريس، وتشجيعه له على ممارسة رجولته كسبيل لتحقيق الصحة وإبعاد التوتر والوحدة. لا شك أن والده لن يوافق على أن يعيش ابنه من دون امرأة ومن دون حب كما يفعل الآن في عمان. والده كتب شعراً غزيراً حول الحب والجمال والحرية. نظر فوقعت عيناه على بعض شعر والده، كتبه على السبورة. ربما فعل ذلك من دون شعور عندما تذكر والده: القصيدة تقول كالآتي:

بيان أول للحرب(*)

قلت:
إني أحبك حتى الـ...
فقاطعني الشرطي

(*) عدنان الصائغ، **تحت سماء غريبة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيان أول للحرب، ص ٢٥.

twitter:@dohat_alkutub

على حافة الوردة التالية.
تأملت ثغرك يحمرّ من الخجل
ويذوب على شفتي:
أحبك حتى الـ.....
....
رأيت الغيوم البعيدة تهبط
حتى تلامس أهداب عينيك
تنهمران...
فيورق صمت المدينة:
أشجارها
والبيوت التي استيقظت — في الصباح —
على جرس الحرب.
كنت أرى من بعيد
صعود الكروش مع اللافتات
تصفق: يحيا ال......
صحت يحيا الوطن
ولكنهم قطعوا حلمنا بالهتافات
... والطلقات ...
....
....
....
وقفت بناصية الشارع المتلاطم

twitter:@dohat_alkutub

منخزلاً...
أرقب اللافتات تسد الشوارع
كنت أرى وطني
خلف قاماتهم، وظلال العمارات
والخوذات الأجنبية
مرتبكاً يلتفت نحوي...
فيدفع الشرطي إلى آخر الصف
يعث...
تعلو الهتافات
يسقط
تعلو المدافع
تعلو...
وتعلو...
وتعلو...

لا يشك شهم في أن خياته الحالية خاوية من المتعة التي يجب أن تكون عند كل الرجال وأنه لم يعبّر عن رجولته منذ زمن طويل. تذكر والده وبعض أصدقائه وهم يتناقشون بكل جدية في أهمية العلاقة مع الجنس الآخر في تحقيق صفاء الذهن وتقوية الصحة النفسية وثقة الرجل بنفسه. وهو في هذا الحديث الداخلي أحس بنسمات رقيقة تهبّ عليه من جهة البحر الأبيض المتوسط، تحمل معها عبير الزهور والورود من مزارع الزيتون والبرتقال في حيفا ويافا. شعر بوجود فتاة جميلة وهي بملابس البحر، كأنها حورية،

twitter:@dohat_alkutub

تدعوه إلى العناق الدافئ والقبلات الحارة. أخرج صورة لآخر بنت قابلها قبل حضوره إلى عمان وتحسس شفتيه وتمنى أن يجود الزمان ويعثر على واحدة مثلها في عمان. ستبدد الفتاة العمانية ملل الوقت الثقيل الذي يقضيه في التدريس وتعطي لذة خاصة لأيامه القليلة في عمان، وبعد عودته سيكتب أشعاراً عن ذكريات الوقت الذي قضياه معاً.

عاد بفكره إلى بلدته حيث كانت غرفته في منزل والديه تقع مباشرة على الشارع ويمكن الدخول إليها عن طريق باب خلفي، الأمر الذي سهل له إدخال البنات من دون أن يشعر به أحد حتى والداه.

كان والداه بعد أن كبرا يعيشان في عزلة عن المجتمع الخارجي، في غرفة نادراً ما تفتح نوافذها. حركتهم داخل المنزل محدودة للغاية، أمه تغادر سريرها لشرب كوب من الماء ووالده يمشي للطاولة كي يقرأ المجلات العلمية ويكتب الشعر. كانت الأسرة تجتمع حول المائدة لكنهم يظلون صامتين ولا يسأل الأب والأم ابنهم عن الطريقة التي يقضي بها أوقاته وعلاقاته الاجتماعية خوفاً من ألا يعتبر أنهما يتدخلان في أمور لا تعنيهما. كانوا يتناقشون في السياسة والموسيقى والطب ، لم يعرفا شيئاً عن حبيبته نبال التي يقابلها على شاطئ البحر. إنه الآن يتذكر الغياب التام لوجود والديه في حياته وشؤونه وعلاقاته الإنسانية، وتساءل: أين صوت أبي وأمي؟

وفجأة تخيل صوت نبال كأنها تتحدث إليه من الغرفة المجاورة، وتذكر كيف كان يجرها من يدها للدخول إلى غرفته من الباب الخلفي وهي تضحك بدلال وغنج وهو يضع يده على فمها حتى

twitter:@dohat_alkutub

لا تفضح ضحكتها المستور الذي يخططان له. عطرها الجميل وزينتها الرقيقة وأصابعها الرشيقة وقوامها الممشوق وتمددها على سريره، كل ذلك لم يفارق خياله. بجانب نبال يتذكر الصداقات القصيرة العابرة التي مرت به مع الفتيات الجميلات الأخريات والقبل الحارة على الشارع البحري في بيروت. سأل نفسه هل نبال ما زالت في انتظاره ومازالت تتذكره، وهل تحتفظ بصورته كما وعدته عند الوداع؟

لم يتلقّ رسالة من نبال وهو لا يعرف السبب. لم يتسلّم خطاباً منها لمدة تزيد على خمسة أشهر، وهو حزين، رغم اقتناعه أن لها الحرية الكاملة في أن تتخلى عنه وتقيم علاقة مع شخص آخر. ونوى حال وصوله إلى لبنان البحث عنها من جديد، فما يعرفه عنها أنها تهوى النشاط السياسي وعاهدته على ألا تتخلى عن ذلك حتى تتحرر الأرض أو تموت. هل يا ترى أصيبت بأذى؟. لم يشعر بأي رغبة في السيطرة على نبال، فقط أراد أن يعرف شيئاً عن مصير العلاقة التي بينه وبينها وعن مصيرها هي.

واصل المشي بخطوات بطيئة عابراً فناء المدرسة متوجهاً نحو غرفة الدراسة. في طريقه مر بالحارس مصبح وهو يصلح الفرشاة التي يستعملها في التنظيف. فكر وهو يبتسم، في رد فعل حبيبته نبال لو عرفت شيئاً عن منيرة. تمثل نبال الروح الحرة الوثابة والضحك المتواصل واللبس المتحرر القصير، نظر إليها وهي في لباس البحر على الشاطئ وحركات الإغراء التي تفعل فيه الأفاعيل وتجعل قلبه يكاد يخرج من قفص صدره. ظهرت له صورة مغايرة لمنيرة، فتاة لا يعرف شكلها ولكنها دعته إلى اللقاء، يحس بروحها وبوجودها على الرغم من تسربلها بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

twitter:@dohat_alkutub

وبدأ يفكر: هل يا ترى ستدعه منيرة أن يقترب منها، دعك من لمس يديها أو تقبيلها؟.

دخل الممر الذي يقود إلى الصف، بينما المدرسون يتكلمون عن دروس التاريخ واللغة الإنجليزية والدراسات الإسلامية. هاجمت ذهنه أفكار متناقضة. عليه أن يقنع منيرة بخلع غطاء الوجه ويطلب من نبال التدخل للمساعدة في إقناع منيرة بذلك. سمع صوت نبال وهي تودعه الوداع الأخير، في ذلك الصباح الجميل قبل سنة كاملة من الزمان. تكلمت عن البحر والزهور الجميلة الموجودة في مزرعة والده وأهم من ذلك تكلمت عن النصر الآتي وكأنها ستحققه بمفردها. هكذا كانت حماسة نبال قوية وغير مترددة، هل يا ترى تحمل شعلة الحماسة حتى الآن؟ ركبت الحافلة وهي تضحك وترفع يدها له وترسم بها علامة النصر.

ضحك بصوت عال، فنظر إليه مصبح والمدير، منير أبو أهدب، والطلاب في فصل الدراسات الإسلامية باستغراب واندهاش. دخل الصف وبدلاً من التدريس بدأ في وضع خطة، تشبه العملية العسكرية، لتحقيق اللقاء مع منيرة بنجاح. غرفته في مجمع المدرسين تحقق له نوعاً من الخصوصية لكنها ليست بالمكان الأمين. يجب استبعادها كمكان للقاء لأنها تقع في مجمع به عدد كبير من المدرسين ومن المحتمل أن يكتشف الأمر بكل سهولة ويسر، ومن المحتمل أن يرفع بعضهم تقريراً لمدير المدرسة أبو أهدب. ستتحول عندئذ الحادثة إلى مادة دسمة للنميمة بين أوساط المدرسين والطلاب ويمكن للطلاب العمانيين نقل الخبر. لأسرة منيرة وتقع في مشكلة كبيرة تحطم سمعتها وحياتها بأكملها. فكر بأنه لا يرضى ذلك المصير للمسكينة منيرة التي ستجازف بالكثير

twitter:@dohat_alkutub

للقائه. الوضع إذاً في مجمع المدرسين غير آمن. عمل مقدمة للدرس وطلب من الطلاب الاطلاع بأنفسهم على الكتاب وعمل تلخيص وعرضه عليه في نهاية الحصة الدراسية.

نظر من خلال النافذة فرأى الحارس العجوز مصبح وهو يمشي ببطء في فناء المدرسة، يحمل فرشاة التنظيف المتسخة البائسة، وتذكر أن الرجل ينتمي إلى صنف من البشر الذين يصرون على النظر إلى الأمور بأعلى قدر من الحساسية والتوجس. يعلم أن لمصبح غرفة صغيرة خاصة تقع في نهاية الجدار الذي يفصل المدرسة عن البيوت والمكاتب. الغرفة معزولة ومن النادر أن يمر أي شخص قربها لأنها في نهاية مجمع المدرسين وليس من السهل أن ينتبه لها الناس، أو ينظروا لبابها الحديدي الصغير أو نافذتها العالية: هذا هو إذاً المكان المناسب للقاء منيرة.

تحوتي غرفة مصبح كل ممتلكاته، سرير حديد وطباخة صغيرة والقرآن الكريم وتقويم قديم به صورة للكعبة المشرفة وجراب تمر صغير يقتات منه ثلاث مرات في اليوم. لا يستغني مصبح عن تمره تحت أي ظرف من الظروف، ذات مرة حضر لمسقط من منطقته من دون بلح فعاد في نفس الليلة ليأتي بهذا الغذاء الهام. حبه للتمر لا يتوقف على أكل للكثير منه، فهو يقدمه للمدرسين الذين، في رأيه، لا يقدرون قيمته الغذائية.

في فصل الصيف يضع مصبح السرير خارج الغرفة ليبرد عن نفسه لعدم وجود مكيفات في ذلك الوقت. ما كان موجوداً للتهوئة مروحة صغيرة يستعملها ساعتين في الصباح وساعتين في المساء، كي لا يستهلك الطاقة أكثر مما يجب. كان يقوم بطبخ طعامه

twitter:@dohat_alkutub

بنفسه وكثيراً ما كان يقدم للمدرسين فناجين من القهوة العمانية التي تختلف عن قهوة بلدانهم المحلاة بالسكر، هذه قهوة مرة لم يستسيغوها لأنها عندهم تشبه قهوة العزاء.

مصبح هو الآخر له قصة تستحق السرد، زواجه من فتاة صغيرة. أثار زواجه اهتمام المدرسين وغيرتهم وأصبح مادة خصبة للأنس وتبادل الآراء وتمضية الوقت، فالرجل تجاوز الستين من العمر، ضعيف البنية وله ذقن طويلة بيضاء يصبغها، ظهره قد انحنى ورجلاه لا تقويان على حمله. زواجه من بنت مراهقة وعلى قدر كبير من الرقة والجمال كان أعجوبة، كيف وافقت هذه الفتاة على الزواج من رجل مثل مصبح الذي لديه عدد كبير من الأولاد والأحفاد ودخله محدود. وقليلاً ما يذهب الرجل لزيارة بيته في منطقة الرستاق لبعد المكان ووعورة الطريق. في الأيام القليلة التي يجلب فيها زوجته لزيارته يقضي الوقت كله خلف باب موصد متعللاً بالمرض. يقف طابور من المدرسين يتنصتون أمام الباب المغلق علهم يلتقطون بعض ما يجرى خلفه لمصبح السعيد. سرت شائعة قوية أن زوجته حامل، الأمر الذي أشعل النقاش حول المسألة برمتها. ظهرت وجهات نظر متباينة، حسب الموقف الثقافي لكل مدرس.

يرى مدرس اللغة العربية، من مصر ويدعى ممدوح قصبة، أن زواج مصبح يمثل تخلفاً عن ركب الحضارة وعلى المدرسين المثقفين رفض مثل هذا التصرف ومحاربته. كان ممدوح لا يخفي استغرابه من مصبح وشكله الكئيب وذقنه الطويلة وصلابته على الرغم من تقدمه في العمر، وكان يتعجب من كثرة الرجال العمانيين الذين يربون الذقون ويرى أنه من الضروري أن يتخلص الرجال من ذقونهم شرطاً لدخول العصر الحديث والمدنية. مرات كثيرة سمع

twitter:@dohat_alkutub

شهم ممدوح يناقش مصبحاً في هذا الأمر، وسمع مصبحاً يصرخ في وجه المدرس المصري ويطلب منه أن يتركه وشأنه ولا يخوض في أمور لا يعرفها. وطالما ضحك الجميع من منظر غضب مصبح وخوف ممدوح منه.

مدرس الرياضيات، عراقي يدعى ناظم المذهبي، يرى أن الوضع في عمان لا يختلف عن الوضع في العراق، كان يذكر أن النساء في العراق يرتدين العباءة وغطاء الوجه تماماً مثل النساء العمانيات. مدرس اللغة الإنجليزية، أردني يدعى جهاد خوالدة، ينظر لزواج مصبح كأمل في أن يتزوج هو بنتاً صغيرة عندما يكبر في العمر ويشيخ.

أما شهم فقد بدا ينظر للمسألة من زاوية تختلف عن باقي المدرسين ولا سيما بعد تعرفه إلى منيرة. كان يعرف أن مصبح في حاجة ماسة للمال، فقد طلب من المدرسين مرات عديدة أن يقرضوه بضع روبيات إلى أن يقبض معاشه، تساعده في مصروفات طفله المنتظر. وكان يعرف أن لمصبح سلطة إدارية بصفته المسؤول الوحيد عن الإشراف على مبنى المدرسة، وله فوق ذلك غرفة هادئة بها قفل محكم بعيدة عن غرف المدرسين، بعد منتصف اليوم يكون مصبح هو الشخص الوحيد الموجود في الساحة. كل يوم يذهب مصبح بعد تأديته لصلاة العصر إلى السوق، لا قوة في الدنيا أو حدث يستطيع صده عن ذلك، هذا يعني أن حجرته في الوقت الذي ينوي فيه شهم لقاء منيرة تكون خالية. في ذلك الوقت يذهب الإداريون ومدير المدرسة والمدرسون للقيام بمهام خارج المدرسة أو يهجعون للراحة في غرفهم. إذاً غرفة الحارس هي الحل لمشكلة اللقاء بمنيرة، هذا ما توصل إليه شهم.

twitter:@dohat_alkutub

٣

في يوم لقائها بشهم بذلت صابرة مجهوداً كبيراً في تحضير نفسها لهذا اللقاء. كانت مأخوذة بذلك الرجل الجذاب المتعلم والعصري، الذي أتت به الأقدار إلى عمان. كانت خائفة من ألّا يجد فيها شيئاً مثيراً وصفات عالية، كالتي يجدها في النساء الأخريات اللواتي يعشن في البلدان التي تراها في المجلات والصحف وتسمع عنها في المذياع. في الليلة قبل اللقاء لم تستطع النوم، وفي النهار شعرت بالقلق والانفعال الشديد.

تخيلت نفسها بعد لقاء شهم وقد غادرت سراً معه بصفتها زوجته إلى بلده فلسطين، ذلك المكان الساحر الذي طالما سمعت عنه في الإذاعات وقرأت عنه في قصاصات الصحف والمجلات القليلة التي تعثر عليها بين الحين والحين. كانت تعرف أنه ينتمي إلى مكان مليء بالقنابل ويسيطر عليه الصهاينة الذين يمارسون القسوة على النساء والأطفال والشيوخ. جعل الصهاينة من شعب فلسطين

twitter:@dohat_alkutub

لاجئين في بقاع الدنيا، لذلك كانت تشعر بكره عميق تجاه هؤلاء المجرمين. كانت تحلم في الوقت نفسه بالجبال والأنهار ومدن فلسطين العديدة بشوارعها وشمسها وبحرها وثقافتها، وكانت تتخيل نفسها جنب أبي شهم وأمه، وهما في ملابس فلسطينية تقليدية مطرزة، يشربان القهوة والشاي.

نهضت مبكرة من النوم قبل أي فرد من أفراد أسرتها، وهو أمر ليس غريباً عليها فهذا ما تعمله كل يوم. شاهدت الشمس تشرق على حوش البيت، وسمعت حركة خفيفة تدب في الحارة، حركة النساء وهن يستعدن لإعداد طعام الإفطار لأسرهن. كانت تجد صعوبة في فهم المحيط الصغير الذي تعيش فيه، ولم تكن تعرف مقدار القسوة التي تتعرض لها، بسبب عدم وجود تجربة خارج الإطار المرسوم لها تستطيع أن تقيس عليها الأمور المتعلقة بها.

التجربة الوحيدة المختلفة التي مرت بها هي عندما ذهبت مع بنات أخيها إلى مسقط لأخذ صور ليبعث بها حمد إلى البحرين لأخي موزة. أخذ الصور مصور هندي يدعى كرستين، مشهور خصوصاً وسط الناس الذين يسافرون لبلاد الاغتراب، حيث كان المصور الوحيد في العاصمة في ذلك الوقت، وهو متخصص في التقاط صور السفر. التقط لهن صورة فوتوغرافية، ظلت لشهور تجتر ما حدث لها ولبنات أخيها أمام الكاميرا وتنظر إلى الصورة المشوهة التي تسلّمتها من المصور، تخلصت منها برميها في النار وحرقتها. عدت تلك التجربة تجربة محبطة مع العالم العصري الذي تريد مواكبته بلهفة. تتذكر صابرة أشخاصاً ذهبوا من محل التصوير وهم غاضبون من التشويه الذي أصابهم على يد المصور كرستين وكاميرته اللعينة، ومن الكلفة العالية للصور الفوتوغرافية. يومها

twitter:@dohat_alkutub

حلفت ألا تقف أمام عدسة آلة تصوير مدى الحياة. كانت أصيلة تنبهها، وهي تدللها، من أن ذلك الحلف قد ينكسر ذات يوم عندما تنوي السفر، عندما لن تستطيع إتمام الإجراءات من دون صورة.

لسبب لا تعرفه، أدت تجربة التصوير إلى خلق صراع داخلي عند صابرة. من ناحية هي تتطلع إلى عالم عصري حديث تستطيع مناله من خلال السفر، لكن كانت الصورة تقف حجر عثرة أمام هذا السفر. هل ستذعن وتقبل التصوير أم ترفض وتفقد العالم الخارجي؟ في العالم الخارجي أدوات طبخ حديثة وأقمشة جميلة الألوان وساعات مذهبة وأدوات كهربائية وعلم غزير تتوق له نفسها. وهي وسط هذا التضارب في التفكير قالت لنفسها إن عليها أن تنسى الصور الفوتوغرافية والمصور الهندي كرستين ومحله البائس وتتطلع إلى أشياء أخرى فيها المعاصرة والحداثة. عقدت مقارنة بين المصور الهندي، الذي يغالب القديم مع الحديث، القديم هي آلة تصويره البالية التي يريد من خلالها إعطاء الحديث للناس. ولكن بسبب أنها آلة عتيقة فهو لا يستطيع ويظل يسبح في ترعة الماضي والتخلف. أجرت مقارنة بين المصور وبين شهم الذي يمثل المستقبل والحضارة، وتوصلت إلى اختيار المستقبل والحضارة.

نظرت إلى الحناء التي صبغت بها يديها ورجليها من يومين وتمنت أن يعجب بها شهم. قضت وقتاً طويلاً وصبرت بين يدي أصيلة حتى رسمت الحناء علي يديها ورجليها بدقة وعناية. بعد الانتهاء خافت الفتاتان من أن تغضب مريم أم صابرة من الإبداع والتفنن في رسم الحناء على يد فتاة كصابرة غير متزوجة، فرسم الحناء ليس للعذارى بل للنساء المتزوجات. لكنهما غامرتا وأطلقت أصيلة العنان لخيالها ليحلق بها في عوالم بعيدة. أهم من ذلك كان

twitter:@dohat_alkutub

خوفهما من أن يكتشف حمد رسم الحناء ويخلق مشكلة لصابرة. سألت نفسها هل يا ترى تستعمل نساء فلسطين الحناء أم ينظرن إليها كشيء متخلف لا يناسب العصر الحديث؟

نظرت إلى السحاب في الجانب الغربي وإلى الشمس وهي تشرق لتبدد ذلك السحاب الذي بدأ فجأة يتجمع. خافت أن تمطر السماء في هذا اليوم المهم فيصعب السير في الطرقات والشوارع وتفشل في لقاء شهم. تساءلت عن الطريقة التي تصل بها الحداثة إلى حياتها: هل من خلال الجرائد والمجلات أم ماذا؟ لم تستطع الإجابة عن هذا السؤال لضيق الوقت والقلق الذي تشعر به.

نظرت إلى نفسها وجسدها الذي بدأ يذبل كما تخيل لها. الأمر ليس كذلك كما قالت لها أصيلة مرات ومرات، وهي تساعدها في خلع فساتينها الضيقة التي تماشي الموضة الحديثة. صابرة وأصيلة تختاران ملابسهما من تصاميم موجودة في كاتلوغات قديمة عند الخياط الهندي، الوحيد المتخصص في خياطة ملابس النساء في المدينة. لا يسمح لصابرة بتفصيل ملابسها معه لأنه رجل، ولهذا تقوم، بمساعدة أصيلة، بخياطة الفساتين بنفسها. تمضيان أياماً وليالي على الماكينة الهزيلة التي اشتراها حمد لتخيط عليها ملابس بناته في الأعياد والمناسبات الاجتماعية. كثيراً ما تتقطع في داخلها خيوط القماش فتفقد صابرة أعصابها وتصرخ وتتوعد أن لا تستعملها مرة أخرى مهما كان الأمر. كانت أصيلة تشاركها في العمل على هذه القطعة الحديدية الجامدة الصماء. وسريعاً ما تنسيان غضبهما عليها وحلفهما بمقاطعتها ورميها كي تتخلّصا من عنادها ونكدها، بمجرد بداية تصميم فستان جديد وجميل.

twitter:@dohat_alkutub

مضغت صابرة شيئاً من نبات الداروف لتنظف به أسنانها ولتضفي عليها من البياض وعلى لثتها حمرة، لا تفعل باستمرار لأن هذه عادة للنساء الكبار والمتزوجات لا لفتاة غير متزوجة مثلها. لفّت جسدها بملابس عادية لكي لا تشد الانتباه أو تثير شكوك أمها أو حمد بما تنوي القيام به في آخر النهار. ولكن كانت كيمياء جسدها تفتقر للقدرة على التفاعل، كانت تعيش الانعدام والموت. تمنت من صميم قلبها أن يؤدي لقاؤها مع شهم إلى تفاعل يكمل حياتها ويسد أي نقص تعيشه الآن ويعطيها بصيصاً من التفتح الذهني الذي ينقصها بسبب الانغلاق الذي تعيشه ويحرم عليها أي تطلع يمكنه زيادة معلوماتها عن العالم خارج محيطها. تتوق لأن تودع البوار الذي شعرت به في محل المصور الهندي كرستين وأن تلفظ من رئتيها الرائحة الكريهة التي تفوح منه ومن محله الكئيب. غادرت المكان حيث كانت وهي تشعر، لأول مرة في حياتها، بأنها أنثى مليئة بالأمل والحيوية، أنثى تنتظر موعداً جميلاً.

حملت بعض الماء وعادت إلى المطبخ لتجد أمها تتذمر كعادتها وتحاول العثور على أدوات منزلية لا تستطيع الوصول إليها بسبب فقد البصر الذي تعانيه. كانت صابرة تخاف من أن ينظر إليها شهم كمخلوق نادر قديم في طريقه إلى الانقراض والزوال، مخلوق شاذ يعيش خارج التاريخ. لشهم خلفية متحضرة ومثقفة، لذا لن تستطيع إغراءه أو جذبه إليها مهما بذلت من مجهود وعملت من زينة، أحست بأنها تقبع في ركن معزول من أركان العالم القصية. شهم نفسه، قبل وصوله مع حملة التدريس، لم يعرف سوى القليل عن هذا العالم المنغلق. نعم، إنها تعرف الكتابة والقراءة، لكن ذلك لن يعني الكثير لرجل من منطقة بدأ فيها

twitter:@dohat_alkutub

التعليم منذ عقود طويلة من الزمن. شعرت بأنها مخلوق يعيش في مكان قد توقفت فيه عقارب الساعة عن الدوران.

كانت على بينة من أن شهم يعلم أن البنات العمانيات غير مسموح لهن بالاختلاط مع الأولاد أو الخروج وحدهن، والأغلبية منهن لا يرسلن إلى المدرسة في ذلك الوقت في سنين الستينيات. صابرة من الصنف القليل الذي استطاع اللحاق بقطار التعليم قبل فوات الأوان ولو أن تعليمها ومعرفتها محدودة، ولولا مثابرتها وطموحها في التغلب على الأشياء التي تقهرها لظلت أمية، لتبريرات اجتماعية غير موجودة في فلسطين. هنا، شعرت بأن التعليم الذي تلقته هو النافذة التي ستدخل من خلالها إلى قلب شهم وأنه سيحبها لهذا السبب وينسى كل الحواجز الأخرى التي تقف حائلاً بينها وبينه.

وقف شهم عند نافذة غرفته في مجمع المدرسين ونظر إلى الأفق الغربي عندما كان الظلام ينحسر عن مطرح التي لا يعرف بالضبط كيف يصفها، مكان يدخل تحت مسام جلدك وتستيقظ في يوم لتجد أنك تحبه ليعطي الفرصة لنور الشمس. كان يفكر في الفتاة التي ينتظر وأخرى من مكان آخر. أجرى مقارنه بين حبيبته الفلسطينية نبال وبين منيرة. بنت فلسطين كانت تستمتع بالأشعار التي يكتبها وبينهما قضية تربطهما إلى الأبد قضية فلسطين المغتصبة، يتذكر الآن شعراً كتبه لها حينما كانت ترقد على سريره، تراقبه كما ينتظر الطفل العاري إلى أمه المرضعة ورائحة عطرها الفواح تسافر في أرجاء المكان وفي أعصابه وتتوغل إلى درجة أنها تدفع به لينحني ليقبلها مرات على ثغرها المغري الجذاب:

twitter:@dohat_alkutub

جنوح(*)

كان يلزمني لاجتراح القصيدة
طاولة خارج اللغة ـ والبيت (معنى يشكله الطفل،
قبل الفراشات،
في رعشة البرعم الغض)
قلب يدل الغيوم إلى الزهرة الجلنار (والأصابع تنسل سهواً
إلى مرمر الصدر وتجفل،
تسألني بعدها:
كيف مررت سهوك ثانية تحت قوس القميص)
سيدة لا تكرر أحلامها في نعاس الحداثة (أسمع من شرفة النص:
وقع ارتطام خطاك على البحر)
كان يلزمني للرحيل
انطفأ الحنين
وقبرتان
وذل التسول في زمن ـــ الثلج
ظل التجمل في الوطن ـــ القمع
فانكفأت على ما لدي: الحقائب تنثرني في الرصيف عراء

(*) عدنان الصائغ، **تحت سماء غريبة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، جنود، ص ١٨.

twitter:@dohat_alkutub

طويلاً ستطويه ريح المخاوف في درج الضابط الفظ وهو يوزعني
في البصاق على أوجة النائمين بأرضية المخفر الرطب،

منسرباً في الدروب التي هربت حزنها في قناني الكحول إلى

غرف النوم والثكنات... انفض ما قد تساقط من ورق الدمع

فوق مصاطب عمري، وأمضي وحيداً بظل الحقائب (فارغة)

تتعثر أو تتردد في عتبات الفنادق، تغمز لي — في ممر الخصور

إلى صالة الرقص — سيدة تتصابى وراء مساحيق أحلامها
والزجاج المضبب انسل من طقم اسنانها نحو لوركا،
يطاردني الجاز والبق. ضوء المصابيح يرشح من معطف الحارس
الرث نحو سريري، فأفترشه وأنام على شعرها حالماً بالينابيع،

يوقفني المخبرون بباب المطارات منقسماً بين داري وسيقان من
يعبرن دمي في ثياب الأغاني القصيرة. لي وطن في الحقيبة
كيف أهربه من عيون المفتش وهو يجوب مسامات نبضي،

رصيفاً، رصيفاً. فيربكني نايهُ في الجنوب البعيد: أنين قرانا

twitter:@dohat_alkutub

التي مشطتها المفارز والطلقات... أمد يدي بالبطاقة (ممسوحة) يتفحصها حذراً. كيف لم أنتبه للصراصير تقفز من عينه. ويسقط القلب منكسراً فوق أرضية البهو. أحني دمي كي ألمّ الرنين — والحنين، فينهرني الواقفون الأنيقون (تحني منظفة البهو قامتها كي تلم سماء الوداع المشظاة. يقرصها رجل ثمل، فيفز الحمام بدمعتها في ظلال السرير الوحيد) أمر أمام الطوابير، تدفعني موجة نحو كشك صغير، أرى في الجريدة صورته تتبسم للعابرين،يطن الذباب على أنفه ويطير لمبنى الإذاعة حيث المذيعه تنفخ في علكها كره يتقاذفها الجنرالات (ينفخ في بطنها مخرج ثم آخر) يعبرني الباص. أعبر جسر البكاء إلى صدر أمي. أرى مدناً نخرتها الجنود، وأخرى رمتني ككلب طريد وراء الحدود، وأخرى تلعق — في الحرب — سروالها راية.

— أين نسيت القصيدة

— لم انسها

كان محض جنوح إلى عزلة الروح

تلزمني غابة للصراخ ومحبرة من دم

كي أتم القصيدة...

وأستمع إليها وهي تثني على شعره وتعبر له عن إعجابها بما ورد فيه. تذكر أنها قالت له أنا جائعة وأريد أن آكل، شعرك فتح شهيتي ولا بد من تناول أي شيء، على وجه السرعة، أبو طفلة

twitter:@dohat_alkutub

حبيبي. تحسس صورة نبال داخل جيبه ونظر من خلال النافذة فرأى مدرس اللغة الإنجليزية جهاد وهو يغادر مجمع المدرسين. خاطب نفسه قائلاً: هل لقائي بمنيرة سيكتب له أن يكون ضمن الأعمال الفاشلة التي لا طائل من ورائها؟

في الليلة التي سبقت موعده مع منيرة مشى حتى حفيت قدماه، كما كانت عادته أن يتجول في أنحاء مطرح ناحية السوق القديم، في محاولة للتعرف على المجتمع والبيئة المحيطة ليعرف المكان وطبيعته كي يساعده على معرفة منيرة. قال لنفسه كيف يتأقلم مع بلد بعيد عن بلده، حتى الرسائل صعب وصولها والطلاب قليلاً ما يتداخلون مع المدرسين أو يعطونهم فرصة لزيارتهم في بيوتهم، هناك عزلة متبادلة بين الطرفين. لم يستطع الانسجام ولا يوجد شخص واحد يهتم به ويقدره حق قدره، فهو شاعر مفوه. وهو يتساءل: كيف لقريحة شعره أن تعبّر عما بها في مكان كله من الرجال، بينما النساء يعشن مختفيات كالأشباح؟ ماذا سيحدث لو اقترن بامرأة عمانية، قال هذا وتذكر أنه اليوم فعلاً على موعد مع عمانية وقد تحدث من خلال هذا اللقاء أمور تغير فهمه لهذا للمجتمع. قد تتغير حياته للأفضل ويخف ثقل الأيام التي يقضيها كمدرس أعزب.

اختلطت ضحكة حبيبته نبال في فلسطين مع أصوات الأمواج الصاخبة في ميناء مطرح، حينما كان يشاهد الأسماك تتحرك في مياه البحر المتسخة عند الشاطئ. وصل إلى قناعة بأنه يحتاج لتجربة كبيرة، مهما كانت طبيعتها ونتائجها. الصمت الذي يعيشه مؤرق ولا بد من تغييره، والفراغ الذي يعانيه قاتل ولا بد من شيء يملأه. تصور نفسه وقد كتب رسالة دكتوراه حول تجربته في عمان وهو

twitter:@dohat_alkutub

في مرحلة وضع العنوان المناسب للبحث العلمي: هل يعطيها عنواناً مثل «الطبيعة الخفية للخليج» أم «حب الاستطلاع وسط المدرسين في عمان» أم «الملل وآثاره المدمرة»؟ سيعد في يوم من الأيام فيلماً وثائقياً عن بلد معزول ومنسي، عن عمان التي بدأ يفهمها قليلاً ويحبها فهي بلد لا ينازعك في شيء ويملأك بالهدوء والتأمل. توصل إلى نتيجة أن عمان هي أفضل مكان للكتابة لما تتيحه من هدوء وابتعاد عن الصخب الذي بدأ يزحف على جميع بقاع العالم. أمامه الكون ينهار بسبب الطمع الاقتصادي والارتباك السياسي والتحركات العسكرية، كما في منطقة الشرق الأوسط ومناطق أخرى من العالم خاصة بعد الحربين العالميتين. والعالم يقسم إلى دول صغيرة وهناك دول كبيرة تسعى خلف مطامعها. تذكر النكبة في فلسطين. بالرغم من كل ذلك الهول تجد مكاناً كعمان ينعم بالهدوء، تلك أعجوبة من أعاجيب الدنيا، التي على العالم تقديرها لأنها أصبحت من الوقائع القليلة النادرة التي لا تقدر بثمن.

قال محدثاً نفسه: سأذهب إلى محل التصوير وآخذ صورة لنفسي في الملابس العمانية التقليدية وأرسلها إلى نبال في بيروت لتستمتع بها وهي في لباس البحر على شاطئ بيروت ولتأخذ فكرة ولو قليلة عن نمط الحياة وتقاليد الناس هنا. هل تعرفت يا ترى نبال إلى رجل آخر؟ من حقها أن تفعل ذلك، فهي روح حرة، وما الفائدة من انتظار شخص قد لا تعود به السفن أبداً.

شعر شهم بوجود شخص خلفه، التفت فإذا هو مدرس اللغة الإنجليزية، الأردني جهاد، يجلس على حائط قصير يراقب البحر. قال موجهاً كلامه إلى شهم:

twitter:@dohat_alkutub

ــ كل هذا التاريخ وأمجاد الماضي وجد نفسه محصوراً في مكان ضيق صغير. هذا مكان سري معزول عن العالم ويقبع في ركن مجهول بعيداً عن أعين المتطفلين والطامعين. هؤلاء الناس قد حققوا معجزة باختفائهم عن أعين الغزاة والطامعين، في الوقت الذي سيطر الإمبرياليون على كل أجزاء العالم العربي. في رأيي لقد نجح العمانيون في تحقيق هذه المعجزة بحكمة بسيطة تقول: الوصول إلى النجاح يحتاج للكتمان والسرية. بالمناسبة، دائماً أراك تمشي من مكان لمكان، تبحث عن إجابة لحل مشكلة فلسطين حتماً بين الجبال الكاسرة والبحر المنساب بتلقائية. أنت تقول لنفسك لو كانت فلسطين معزولة كعمان، لما هجم عليها اليهود وسرقوها، لأنك لا يمكن أن تتخيل أحداً يعثر على هذا المكان، صدقني. البرتغاليون مثلاً فشلوا في مغامرتهم المستمرة في البقاء هنا واستطاع العمانيون هزيمتهم وإجلاءهم في زمن قصير. الظلام المسيطر على البحر يقف حائلاً بين كل من حاول الرسو في هذا المكان المنفرد، كيف عرفناه نحن المدرسين من مثلي ومثلك، لا أعرف.

استمع شهم لمرافعة جهاد الطويلة عن تاريخ عمان وطبيعة شعبها وعلاقاتها الخارجية مع العالم أجمع، لكنه فضل الصمت وعدم الدخول في نقاش لا طائل من ورائه. جهاد يتكلم عن حل لمشكلة فلسطين بينما كان شهم في هذا الوقت بالذات يبحث عن حل لمشكلة خاصة لا أكثر ولا أقل، مشكلة لقاء منيرة. أعطى شهم زميله آخر سيجارة بقيت له ومشى بعيداً، يحمل همه الخاص، تجاه لسان من الأرض يمتد داخل مياه البحر التي لا نهاية لها.

twitter:@dohat_alkutub

تحدث جهاد عن مادة الكيمياء وأظهر عدم اهتمامه بها وادعى أنه شاعر لا يشق له غبار. حدّث شهماً عن الأشعار التي ألفها والدواوين التي نشرتها له العواصم العربية مثل القاهرة وعمان، وادعى أنه ترجم كتبه إلى الإنجليزية والفرنسية. شكا من صعوبات النشر في العالم العربي وقلة القراء والرقابة والمنع التي تواجهها الكتب التي تحمل أفكاراً جريئة لا يوافق عليها المسؤولون، وذكر أنه ترجم أشعار الشاعر اليوناني العظيم كافافي، الذي عاش في الإسكندرية بمصر.

وهما يمشيان على شاطئ البحر في مطرح هاجمتهما رائحة نفاذة عبارة عن خليط من السمك الميت والطحالب والماء المالح. خطرت في ذهن جهاد أفكار حول الطعام العماني والثقافة والتاريخ، فطفق مرة أخرى يتحدث موجهاً كلامه إلى شهم.

قال جهاد: الطعام في عمان يختلف عنه في الأردن وفلسطين، لقد ناقشت هذا الأمر كثيراً مع الطلاب في صف اللغة الإنجليزية. هنا السيطرة كاملة للسمك ومشتقاته ولا يوجد زيتون ولا حمّص ولا خبز كالذي نأكله، كيف يعيش هؤلاء الناس على طعام كهذا لا أعرف؟ ولكني أعرف أن الطلاب يهيمون في طعامهم هياماً لا وصف له، طعامهم المكون من الأرز والسمك، المقلي بالبهارات الكثيرة يكاد اللسان يتعثر عليها ومرق السمك مع أرز لا يشبه الأرز المطبوخ مع الشعيرية الذي نعرفه. لقد ذقت الطعام العماني مرة واحدة فقط عندما دعاني أحد التلاميذ يوم ختان أخيه الصغير، وبالفعل كانت تجربة هامة. ليتهم يصنعون مثل الخبز اللبناني لكنا استمتعنا ولكان غذاؤنا متنوعاً، بدلاً من نفس الطعام كل يوم. ليت العمانيين يتخلصون من أطعمة المزارعين مثل السمك

twitter:@dohat_alkutub

والتمر، أنا أكره السمك وأكره رائحته النتنة، لكن العمانيين يأكلونه بكثرة لدرجة صارت أجسادهم تنز برائحة السمك. أقترح القبول بسمكة كرمز لكل طالب عماني وتسمية المدرسة مدرسة الأسماك الشهية، اسم سيلاقي من دون شك إعجاب التلاميذ الذين يعشقون السمك. لا يكادون يستطيعون الانتظار إلى نهاية الحصة الأخيرة عندما يقترب موعد وجبة الغداء، أسمعهم يتحدثون بعضهم مع بعض، الواحد منهم يقول أمه أعدت له سمكاً مقلياً مع الخبز لأن خالته آتية لزيارتهم، والثاني يقول إنه توسل لأمه أن تعد له مرق سمك والثالث يفضل سمكاً مدفوناً في الأرز، كل ما يأكلونه أساسه سمك.

تصنّع شهم الاهتمام بما قاله زميله جهاد رغم انه كان شارداً في عالمه الخاص. قال وكأنه يرد على ما ورد في الكلام عن الطعام العماني، خارجاً عن مجرى الحديث الأصلي الذي يدور بينهما. أنظر إلى قلعتي الميراني والجلالي اللتين بناهما البرتغاليون منذ مئات السنين. لا بد أنهم وفدوا إلى هذا المكان لوجود شيء جذبهم إليه. فكر في الشجاعة التي تحلى بها العمانيون عند التخلص من البرتغاليين. كانت الأحوال صعبة وعلى الرغم من ذلك حرروا هذه الأراضي، لم يتحقق ذلك بسحر بل بالقتال العنيف والصبر الشديد. هذه هي الثقافة بعينها بل الشجاعة. أدرك بحاسته أنه خرج عن لب الموضوع الذي كانا يتناقشان فيه وهو الطعام العماني ومقارنته بالطعام الشامي. إجابته لم تكن مصوبة علي الطعام بل على ماضي عمان وتاريخها. وليتدارك الأمر قبل أن يكتشفه زميلة قال: دعني أقل لك حاجة مهمة ستتذكرني بها مدى حياتك، لا تستطيع التعرف على ثقافة شعب إلا عن طريق علاقة مع إحدى نسائه. التجربة النسائية هي المدخل الصحيح لتذوق ثقافة أي

twitter:@dohat_alkutub

شعب، حتى الشعب المحافظ الذي لا يُرى من نسائه شيء كما الحال هنا، هذه الوسيلة هي الأفضل من أي طريقة أخرى.

رفع جهاد يديه كأنه يعلن الاستسلام ثم غادر المكان بهدوء، بينما كان الظلام يسيطر على الأرض والبحر عند مشارف مطرح. شعر شهم بالأسف لأنه لم يكن يركّز على ما كان يتحدث عنه زميلة جهاد، لذلك كان رده بعيداً عن جوهر الموضوع. في العادة شهم شخص يهتم بكل ما يقال له اهتماماً جيداً، حتى إنه عندما كان في الجامعة والمدرسة كان أساتذته يطلبون منه الوقوف أمام الطلبة لشرح معلومات متنوعة عن الكيمياء والتاريخ واللغة والرياضيات. قد تكون الضغوط التي يتعرض لها في الوقت الراهن هي التي تجعله عديم التركيز والاهتمام بما يسمعه من الآخرين.

كان شهم معتاداً التعامل والعيش مع النساء، وها هو لم يمر بتجربة نسائية لزمن طويل. قد يكون هذا هو السبب وراء الضجر وعدم الاكتراث لأي شيء يقال له، إضافة إلى ضعفه في أسلوب التدريس وتعامله السلبي مع التلاميذ الذي بدأ يظهر عليه بصورة لا يمكن إخفاؤها. منيرة ستكون المفتاح لحل أزمته، عن طريقها يستعيد علاقته مع نفسه ويتصالح مع عمان وكل بقاع الدنيا، وفوق ذلك سيرضى والده الذي طالما طالبه بأخذ العلم من أفواه النساء.

جالت في ذهن شهم أفكار إيجابية كثيرة وهو يغادر الشاطئ نحو غرفته. يستطيع أن يكتب كتاباً عن عمان وما شاهده فيها، فكرة أخذ يجترها في داخله مرات ومرات حتى غدت صورة واضحة يراها رأي العين. كتاب على غلافه إحدى الصور التذكارية التي

twitter:@dohat_alkutub

التقطها عند غروب الشمس أمام ساحل (الباليوز) في مسقط، صورة رائعة توضح جمال هذا المكان البديع. والإهداء سيكون (لعمان وشعبها) لأن هذه أرض تختلف عن أي مكان شاهده في حياته أو شاهده الناس في العالم الخارجي. كتاب يكتبه رجل عاش في المكان وعاصره، وذلك أمر نادر، فقليلون في العالم ممن أتيحت لهم فرصة العيش في عمان والكتابة عنها. الكتاب سيجلب له شهرة لم يكن يحلم بها أبداً. بجانبه سيؤلف كتاباً آخر عبارة عن ديوان شعر يستلهم قصائده من بحر عمان وجبالها الكثيرة العالية التي تجعل من مسقط طفلة في أحضان الصخور. الآلاف من البشر سيعجبون بمكان كعمان عندما تطرح خصوصياته في كتاب كالذي ينوي تأليفه، كتب عن عمان ستجد الكثير من الإقبال وكتاب كهذا سيجعله أول كاتب عربي يكشف النقاب عن عمان المتوارية. سيخبر العالم عن غرفته الصغيرة ونوافذها والبيوت القصيرة والأشجار المتناثرة بين فتحات المباني، عن حواري مطرح وجبالها السمراء الشاهقة والتي لا مثيل لها في العالم سوى القليل. يحوي الكتاب كيف تستيقظ مطرح في الصباح، عن جارته الشابة التي يراها كل يوم.

تقف جارته أمام النافذة تمشط شعرها الأسود الغزير من دون أن تراه أو تلاحظ عينيه الجائعتين يتبعانها بشبق وهي تمشي من ردهة إلى ردهة وفي أرجاء الغرفة الصغيرة. ظل يراقبها هذه المدة الطويلة من دون معرفة أي شي عنها سوى أنها إذا كانت متوترة الأعصاب تمشط شعرها بسرعة وغضب، وإذا كانت رائقة الأعصاب تمشط شعرها بعد أن تدير موجة الراديو الصغير الموضوع على أحد الرفوف المليئة بأدوات زينتها من كحل وعطور وهاتف ومبخر صغير، تضع على جمره فتات من البخور وتدور بدخانه

twitter:@dohat_alkutub

بعد تبخير شعرها في أرجاء المكان. من المستحيل على شهم معرفة الكثير عن جارته لأنه لا يوجد شخص يسلط الضوء عليها ويعرف الناس بها. زوجها يعود إلى البيت في نفس الوقت كل يوم، عند الساعة الثانية والنصف محملاً بالفواكه والسمك. بعد عودته إلى البيت بثوان تغلق النوافذ وتظل مغلقة إلى اليوم التالي، عندما تظهر في الصباح من جديد ويقوم هو بملاحقتها بعينيه كما فعل في اليوم السابق. كتب عنها قصيدة قصيرة أوحى له بها منظرها وهي تتبختر في وسط المكان الصغير، غارقة في عالمها الذي يود الوصول إليه ولكنه لا يستطيع.

قصائد البحر(*)

ما لي أبحث عن البحر
وهو بين أصابعي
أقصد: شعرك

*

عندما لم يرني البحر
ترك لي عنوانه:
زرقة عينيك
وغادرني.

*

(*) عدنان الصائغ، **تحت سماء غريبة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، قصائد البحر، ص ٧٨.

twitter:@dohat_alkutub

هرعت إلى غرفتها
لترد على رنين الهاتف
الذي كانت أمواجه ترتطم بالصخور
والجدران
والمرايا
وتتشظى في الأثير.
وعندما رفعت السماعة
سكن البحر
من أجل أن لا يصاب البحر
بالإحباط
حين تهجره المراكب
تعلّم ــ مثلي ــ أن يغطي جراحاته
بزبد النسيان.

*

أيتها الفكرة اللاابطة
كسمكة عنيدة
في حوض اللغة
أحاول أن أتتبع مسارك في خطوط الماء
فتبتل أصابع ذهني
وتزلقين
ماذا أفعل؟
إذا كانت أوراقي لا تسع البحر

twitter:@dohat_alkutub

سيخبر شهم العالم عن مجتمع المدرسة والحارس مصبح، الذي بمجرد أن يرد اسمه في الكتاب يصبح شخصية معروفة، وفوق ذلك يخبر العالم عن تجربته مع منيرة.

twitter:@dohat_alkutub

twitter:@dohat_alkutub

٤

صباح يوم الموعد بدت صابرة متوترة الأعصاب، تخرج وتعيد أعداداً كبيرة من الملابس من داخل صندوق حديدي فيه ملابسها وملابس أمها. كانت محتارة في الذي ستختاره من بين فساتينها الحديثة ليناسب اللقاء المهم، أول لقاء لها مع رجل. تمنت لو كانت أصيلة معها لتساعدها في الاختيار. اختارت عباءة شبه جديدة لبستها عدة مرات في الأعياد واختارت غشاء وجه سميك، تلبسه عندما تذهب مع والدتها للعزاء. وضعت قلادة ذهب على جيدها، منقشوش عليها كلمة «أحبك» بالإنجليزية، اشترتها من محلات تجار الذهب الهنود في مطرح. القلادة من الموضات الجديدة وهي غالية الثمن، لذا كان عليها الادخار لزمن طويل حتى استطاعت شراءها. عندما رأت أصيلة القلادة الذهبية على صابرة استهوتها فاشترت واحدة مثلها. غسلت وجهها ويديها بالماء الفاتر وصابون «لوكس» المحبب لديها بسبب رائحته المعطرة وإغراء صورة المرأة التي عليه، تبتسم بسعادة ومبسمها يظهر أسناناً بيضاء

twitter:@dohat_alkutub

بديعة. كانت الصورة من المناظر التي تحاول معظم الفتيات في ذلك الوقت محاكاتها. بخرت مرات ومرات جميع القطع التي سترتديها ومن ثم شعرها الأسود الطويل الكثيف.

ما كانت تقوم به صابرة من استعدادات مكثفة جذب انتباه أمها المريضة التي بسبب حبها الشديد لها لا تسألها عن أي شي تقوم به. كانت بهذا الحب تحاول تعويضها عن كل شي فقدته كالعلم وحمايتها من قسوة حمد عليها. سألتها قائلة: هل أنت ذاهبة إلى مكان يا صابرة؟ إلى أين؟ ردت عليها بسرعة قائلة: أبخر ملابس المولودة الجديدة وسأذهب مع أصيلة لزيارة إحدى مدرساتنا السابقات، سلوى اللبنانية المتزوجة من إبراهيم أخي صالحة، تتذكرين صالحة بنت عبود التي كانت تدرس معنا أنا وأصيلة؟

قالت: هل «طلبتي إذن» من حمد؟ قالت: نعم.

لبست ساعة رادو قديمة اشترتها من محلات كيمجي رامداس في مسقط، لا تلبسها سوى في المناسبات. جربت وضع بعض المكياج كالبودرة وأحمر الشفاه لترى المناسب منها، ووقفت أمام المرآة لأكثر من نصف ساعة وهي تضع المساحيق على وجهها وتمسحها حتى أعياها التعب. توقفت عن الاستمرار في وضع الزينة وهي خائفة أن تقع عين حمد عليها. تشجعت وتكبدت العناء بالذهاب إلى الصيدلية وشراء عطر جيد من ماركة «بروت» لتقدمه إلى شهم هدية.

اختارت صابرة الوقت المناسب لتخبر حمد عن خروجها، ذلك عندما كان شبة نائم بعد وجبة الغداء. لم يكترث لكلامها ولا

twitter:@dohat_alkutub

للمكان الذي تنوي الذهاب إليه، بطنه كان مملوءاً بالأرز والسمك الذي تناوله بشراهة كعادته كل يوم بعد عودته من الخارج. كان والدها على سريره، والأطفال يلعبون بالخارج وموزة زوجة أخيها تغسل أطباق وجبة الغداء بالمطبخ، لذا لم يلاحظوا ما يدور حولهم مما كانت تقوم به من تأهب واستعداد.

بعد قليل وصلت أصيلة وكانت في غاية الارتباك والخوف. حثت صابرة على الخروج فوراً قبل أن ينتبه إليهن ما أي من النائمين. أصيلة أصغر من صابرة بسنة واحة فقط، لكنها أقرب إلى الطفولة من سن المراهقة بسبب الدلال والحب المفرط الذي يغدق عليها في البيت من قبل أفراد أسرتها ومن قبل صابرة وأمها مريم. في ذلك اليوم كانت كطفلة ذاهبة أول مرة في حياتها لمكان الاحتفالات والأعياد العمانية الذي يسمى العزوة. كانت عينان تشعان ووجهها مشرق وابتسامتها جميلة وفي الوقت نفسه كانت خائفة من هذه المخاطرة التي جرتها صابرة إليها. أثنت أصيلة بصوت خافت على لبس صابرة وزينتها وعطرها، فأشارت إليها صابرة بيدها خوفاً من أن يسمعها أحد وهي تثني عليها.

في بادئ الأمر عندما كانت صابرة تخطط في الخفاء لهذا اللقاء أخبرت أصيلة بما تنوي القيام به وطلبت منها مساعدتها والذهاب معها للقاء شهم. رفضت أصيلة طلب صابرة فوراً بسبب الخوف الذي اعتراها حالما سمعت القصة بل ولم تدع صابرة تكمل إخبارها، خوفاً من أن يلتقط أحد الخبر ويخبر الجميع أن لها ضلعاً في ما تنوى صابرة القيام به. أكدت أصيلة لصابرة عدم رغبتها المشاركة في مسعاها وحذرتها من الفضيحة التي ستلحق بها إذا عرف أهلها بعلاقتها مع رجل غريب، والعار المتوقع من مثل هذه

twitter:@dohat_alkutub

العلاقة الخطرة، ثم دعتها إلى التفكير في الأمر وعدم التهور والجري وراء العواطف والنزوات وحذرتها من المآسي التي سببها الرجال الأجانب للبنات العمانيات في الماضي اللائي انقدن للكلام المعسول. وبما أن شهم غير عماني وسيترك البلد في يوم ما من دون شك، فلا فائدة من أن تنتظر صابرة عودة رجل غريب بعد أن تقع في حبه، وقد لا تجود الأيام بعودته. استمعت لها صابرة ونظرت إليها بحزن وأسى لأنها أدركت أن ما تقوله أصيلة صواب، على الرغم من ذلك لن تأخذ بنصيحتها، فقلبها أصبح متعلقاً بشهم ولا تستطيع الانسلاخ منه. صابرة نوت القيام عمل شيء ويجب عليها تكملته.

في نهاية الأمر وافقت أصيلة على طلبها كي لا تخسر صداقتها من ناحية وعسى أن تستطيع ثنيها عن خطتها في اللحظة الأخيرة. وهما في الطريق قامت أصيلة بمحاولة أخيرة جادة لتخويف صابرة من العواقب الوخيمة لعملها وطلبت منها أن تعدل عنه. حكت لها عن كوارث كثيرة حصلت لنساء جرين خلف لهفة قلوبهن، وذكرتها بما حدث لعائشة التي أقامت علاقة محرمة مع أحد الضباط وحدث ما حدث وانتهى بها الأمر إلى الانتحار وجلب العار لعائلتها وأهلها. لا نتيجة، ظلت صابرة شاردة كأنها في عالم بعيد عن الدنيا التي يقطنها باقي الناس. جربت أصيلة أسلوباً آخر، ذكرت صابرة بالواجب الذي ينتظرها ومرض والديها، أمها كفيفة البصر ووالدها على حافة الجنون وفي أمس الحاجة لمساعدتها والبيت بأكمله لا يستغني عنها فهي المدبرة. لذلك سيصبح بالها مشوشاً من تأثير هذه الاضطرابات التي ستخلقها هذه العلاقة فما الفائدة؟ حذرت صابرة مرة أخرى في محاولة يائسة قبل أن تبدآ السير متجهتين إلى الشارع العام لكنها لم تلق أي تجاوب منها.

twitter:@dohat_alkutub

وفيما عزمتا على قطع المسافة مشياً عن طريق عقبة سداب إلى مطرح وبدأتا تتبللان من العرق بسبب الحر الخانق والمسافة البعيدة والطريق الشاق. وهن في هذا اللهاث والمشقة قالت أصيلة، من تحت غشاء وجهها السميك: صابرة أرجوك توقفي عن المشي قبل أن أفارق الحياة، لا أستطيع المشي أكثر من ذلك، نزول العقبة ليس بالأمر الهين دعينا نأخذ سيارة أجرة.

قالت صابرة: سنتأخر يا أصيلة، إن تأخرنا فقد يغادر شهم المكان. سيظن أني لن آتي. من أين لنا بسيارة أجرة في هذا الوقت ما بين الظهر والعصر؟ وأهم من ذلك كيف سندفع أجرة السيارة؟ ليس لدي ما يكفي من مال!.

قالت أصيلة: أنا لدي ما يكفي وأكثر لأني أخذت معي ما جمعته من هدية العيد أو (العيدية) ومما قبضته مقابل خياطة الملابس و(تنجيم الكميم) لأني كنت عندما تكونين أنت مع شهم أذهب لشراء بعض الذهب من سوق مطرح لتمضية الوقت حتى عودتك.

قالت صابرة: إن كان الأمر كذلك وإن استطعنا العثور على سيارة فدعينا نأخذها.

قالت أصيلة: ما يقلقني ليس عدم إيجاد سيارة أجرة بل خوفي أن يبدأ السائق في قلة أدب معنا عندما يرانا فتاتين بمفردنا؟

قالت صابرة: فعلاً، سائقو سيارات الأجرة هذه الأيام لا أمان لهم، دعينا نجازف فنحن اثنتان وهو وحده. هيا دعينا نقف وننتظر.

twitter:@dohat_alkutub

أدركت صابرة أن ملابسها تبللت كلياً من العرق وبدأ الخوف يعتريها من أن يسبب العرق رائحة كريهة تدع شهم ينفر منها. وهما في وسط هذه المناقشة وقف أمامهما سائق سيارة أجرة شاب، ابتسم وفتح لهما باب السيارة كأنهما جاءتا لمقابلته لا لمقابلة شهم المنتظر الذي كان يمشى من جهة إلى أخرى وينظر في ساعته خوف أن تكون منيرة قد غيرت رأيها بالنسبة إلى لقائه.

ركبتا السيارة، لكزت أصيلة صابرة في خصرها لترى كيف صوب السائق المرآة ليراهما وهما منزويتان في الخلف والخوف ينهشهما نهشاً شديداً. قالت صابرة: خذنا إلى بوابة مطرح من فضلك.

قال السائق: ولكن السوق لم يفتح بعد، لماذا لا آخذكن لتناول بعض المرطبات أولاً في مطعم قريب معروف بجودة طعامه وبعد ذلك تذهبان إلى السوق. سأنتظركما إلى وقت أذان المغرب وأعود بكما إلى البيت مقابل ما تيسر من الأجرة، لأني لا أرى من الصواب التجول مع فتاتين بمفردهما في سوق مطرح خصوصاً في وقت العصر الذي يعج بالرجال والمتسوقين.

قالت أصيلة كأنها تستغيث به: أرجوك أخي لا تفعل ذلك فأمّانا في انتظارنا عند مدخل السوق كما اتفقنا معهما قبل مغادرتنا للبيت. ذهبنا لزيارة أحد الأقارب وسنلتقي بهما هنا للذهاب لزيارة إحدى جاراتنا الوالدات التي انتقلت إلى مطرح الشهر الماضي.

حاول السائق بذكائه معرفة حقيقة الغرض الذي جاءتا إلى مطرح من أجله، والذي يجعلهما تجازفان بأخذ سيارة أجرة من دون مرافق

twitter:@dohat_alkutub

في بيئة لا تتصرف فيه النساء بهذه الطريقة، بل لا يخرجن فيه من البيوت من دون مرافق أبداً، دعك عن أخذ سيارة أجرة. لم يقل شيئاً بل احتفظ بما يدور في خاطره وهز رأسه بعلامة عدم المبالاة، وضغط على زر آلة التسجيل التي اندفع منها صوت عبد الوهاب الحزين يعاتب حبيبته قائلاً «لا، لا تكذبي إني رأيتكما معاً».

واصل سيره مسرعاً والغبار يتطاير من تحت الإطارات حتى وصل بهما إلى بوابة مطرح، مفتوحة على مصراعيها وكأنها تنتظر وصولهما. أخذتا تتنفسان بهدوء. دفعت له أصيلة نصف روبية وأوصدت الباب بشدة من خلفهما. أنتظر السائق لبرهة ينظر إليهما ليرى إلى أين ستتجهان، حتى اختفتا تدريجياً في داخل السوق وغابتا بين الأعداد الكبيرة من المتسوقين. كان يشك في أمر اللقاء المزعوم بوالدتيهما، فندب حظه لأنه ترك فريستين كانتا بين متناول يديه تفران منه بهذه السهولة. أخذ يقول في داخله لو كان بالفعل رجلاً لما أفلتا من قبضته. اختفتا في وسط زحمة السوق بسرعة ولم يتبين السائق منهما طرفاً. وقفتا بحذر تتشاوران في الخطة من جديد، بينما كان الناس يروحون ويأتون في وسط حالة من اللهب بسبب الحر الشديد والرطوبة العالية.

أمسكت صابرة أصيلة من يدها وضغطت عليها وطلبت منها انتظارها حتى تذهب وتعود بعد ساعة. جمعت صابرة أطراف عباءتها عليها وطفقت تجري صوب المدرسة والعرق يرفض التخلي عنها بسبب شدة الحر. واصلت المشي مسرعة ولم تلاحظ الناس الذين مروا قربها. جذبت انتباه إحدى النسوة التي كانت تمشيا مع رفيقتها. قالت المرأة لرفيقتها: لا بد أن شخصاً ما قد مات لأن هذه البنت تجري صوب المستشفى. ردت عليها الأخرى قائلة:

twitter:@dohat_alkutub

هذه ليست امرأة عادية فهي قامت من القبر أي (محسورة)، حيث مررنا للتو على جنازة يحملها الرجال في طريقهم إلى المقبرة. أنا متأكدة أن المرأة التي تجري أمامنا هي نفسها المرأة التي رأينا نعشها محمولاً على الأكتاف قبل قليل. أحلف أنها قد تركت القبر فور دفنها لتلحق بالشخص الذي سحرها. أخذت المرأة تصرخ من دون شعور بأعلى صوتها منادية (مغصوبة يا مغصوبة) وهي تجري للحاق بصابرة والإمساك بها.

أمسكت رفيقتها بها وهي تقول: لماذا أنت هكذا، دعي المرأة وشأنها. كما تعرفين فإن الأرض مسكونة بالإنس والجن. لم تسمع المرأة ما كانت تقوله رفيقتها. مدت جسدها إلى أعلى وأخذت تشد من غطاء رأسها وشيلتها وهي تصرخ في هستيريا غير مكترثة بالناس الذين تجمعوا من حولها لتهدئة روعها من دون جدوى. أخذت تلطم رأسها بشدة وتضرب على صدرها وتنوح وترقص رقصة الزار التي تعتري بعض الناس أثناء الخوف. بدأ بعض الناس يقرأون القرآن ويمسكون على رأس المرأة وهي تواصل الصراخ بصوت عال قائلة: الله حي، الله حي، الله حي.

انتبهت صابرة للذي يجري خلفها وأدركت أن المرأة ظنتها مغصوبة وقعت ضحية أحد السحرة المنتشرين في شتى أنحاء البلاد. تحت ذلك الضغط سارعت صابرة في مشيها حتى لا يلحق بها الناس وينكشف أمرها، كاد أن ينقطع نفسها وتعبت حتى جف حلقها. اقتربت من مكان الموعد، نظرت أمامها فظهر لها مبنى المدرسة الأبيض. رأت شهم في انتظارها كما اتفقا، وكأنه يمد يديه ليرحب بها. كان كلاهما يلتفت يميناً ويساراً للتأكد من عدم وجود شخص يراقبهما. لحسن الحظ كان الشارع خالياً إلا

twitter:@dohat_alkutub

من رجل لم يلاحظ ما حوله لأنه عجوز وأحدب يسرع في الوصول إلى السوق.

بدأ شهم ينظر إلى منيرة وهو يصفف شعره أمام بوابة المدرسة. فجأة رأى مدرس اللغة الإنجليزية جهاد وهو يقف على شرفة الطابق الأول من المجمع، فخاف أن يعرقل عليه هذا اللقاء الذي دبره بحكمة ودقة. المدرس ألقى نظرة سريعة على الشارع ثم دخل إلى غرفته، بينما كانت صابرة تقطع الطريق بحذر حتى وصلت لتقف قرب شهم. لم يتفوه شهم بكلمة واحدة، التفت وسار في اتجاه غرفة الحارس ومنيرة تمشي خلفه.

بدأت صابرة تشعر بالبرد في عظامها بسبب الخوف الشديد والارتباك الذي سيطر عليها عندما بدأت تمشي خلف شهم. أدركت أنها الآن أمام الواقع، وجهاً لوجه مع مشاعرها ومع من حلمت بلقائه طويلاً. لم تستطع السيطرة على مشاعرها وأخذ قلبها يزيد في دقاته ويداها ترتجفان لأنها تعلم أن ما فعلته قد يسبب المشاكل لها ولشهم. إذا عرف أحد بأمر هذا اللقاء ستكون الطامة الكبرى. تخيلت حمد وهو يستمتع بالقيام بدور القاضي والمنفذ لعقوبة الإعدام التي ستصدر عليها من مجلس القاضي أمام مدخل حصن مطرح حيث تطرح الشكاوى من مثل هذه القضية وغيرها كل يوم. جال بخيالها ما حدث لكثير من النساء، سترمى جثتها في قاع البحر تأكلها الحيتان ويقال أن الوفاة كانت طبيعية. أما شهم فقد يُطرد من البلاد نهائياً.

وصلت إلى منتصف الطريق وحاولت طرد هذه الأفكار من رأسها كي لا يراها شهم مرتسمة على وجهها وتنتابه الشكوك والظنون

twitter:@dohat_alkutub

والخوف ويتحول هذا اللقاء إلى خلية توتر أكثر منه لقاءً عاطفياً. بينما كانت تحاول جاهدة طرد الوسواس والخوف والظنون من رأسها انتبهت إلى أمر مهم وهو ما سمعته من تهديدات تصل للمدرسين الأجانب، تخوفهم من إقامة أي علاقة مع النساء المحليات. أي تهمة في هذا الأمر سيتم طردهم من دون أي حقوق مالية. قالت في داخلها إذاً شهم قد قامر بالكثير وضحى من أجل لقائي.

أحست صابرة كأنها تسمع صوت أصيلة يأتيها من بعيد طالباً منها الرجوع بسبب ما حدث من الهلع الذي أصاب المرأة في السوق عندما رأتها وهي تهرول مسرعة للقاء شهم ونوبة الزار التي حلت بها وأدّت إلى تجمع كبير من المتسوقين. هذه الدراما ربما أصابت أصيلة بتوتر وعدم استقرار لأنها خافت أن ينتبه الناس إلى صلتها بصابرة التي ظنوها امرأة مغضوبة. أغلقت صابرة أذنها ووجهت تفكيرها إلى ما هو أمامها من صعوبات تنجم عن اللقاء، ستختلي لأول مرة في حياتها برجل غريب لا تعرفه. فكرت في أهمية الوثوق برجل مثقف ومجرب كشهم، فتأكدت أنه سيكتم سر اللقاء ولن يبوح بالذي يجري بينهما مهما تكالبت عليه الضغوط والمغريات.

وصل شهم إلى باب الحديد الصغير لغرفة مصبح وفتحه ثم نظر خلفه. أخذت صابرة نفساً عميقاً ثم تبعته إلى الداخل حيث الظلام يسيطر سيطرة تامة على المكان. ارتعش جسدها حتى كادت تسقط على الأرض من الخوف الذي سيطر عليها.

غرفة الحارس معتمة وقليلة الهواء ومليئة برائحته، رائحة نفاذة

twitter:@dohat_alkutub

يصعب الوصول إلى كنهها، خليط من روائح العقاقير كالفكس والحنظل وبعض بقايا وجبة طعام الغداء. وقفت صابرة في منتصف الغرفة تنظر إلى الواقف أمامها وهي ما زالت تغطي وجهها بالغشاء، مرتبكة لا تعرف ماذا تقول. اقترب شهم منها دون محاولة كشف وجهها. تخيلته يشبه بطل رواية «عصفور من الشرق» إحدى روايات توفيق الحكيم التي قرأتها مرة واحدة وما تزال تحتفظ بها. كانت قد استلفتها من صديقتها ووعدت بإعادتها، لكنها لم تفعل وفضلت الاحتفاظ بها كي تحتفظ بالبطل في حياتها. بالفعل هناك شبَه بين تلك الرواية وحالة صابرة وشهم: الغريب البعيد عن وطنه والعلاقة القوية التي تربط بين شخصيتين.

اقترب منها أكثر وقال: دعيني أغلق الشباك، لا نعرف من يتنصت على كلامنا. أغلقه وعاد إليها، فشعرت بأنها الآن أمام الحقيقة عارية، أمام شهم وجهاً لوجه ولا ثالث لهما. قالت في داخلها: يا ريت لو أتت معي أصيلة، كانت ستبقى في الطرف الآخر من الحجرة ولن أكون بمفردي. فكرت أن تخبر شهم بفكرة حضور أصيلة في اللقاء القادم.

كانت تعمل جاهدة لتبقي غطاء وجهها في مكانه، لا تريد إزالته إطلاقا، وإن فعلت فستفعل بتمنع شديد. على شهم أن يضطر ويسحبه بعنف من عليها ويرى وجهها. أخرجت الصندوق الأخضر الذي به قارورة العطر الهدية التي اشترتها له وناولته إياه. أخذه منها بطريقة تدل على أنه يكره هذا العطر السوقي الرخيص، وكان يدرك أن شركة هذا العطر تقوم بحملة دعائية مكثفة لتسويقه ولإقناع الناس أنه من أفضل العطور العالمية. أدرك أن منيرة خائفة ومرتبكة منه. لم ير شكلها بعد ولا يعرف إن كانت

twitter:@dohat_alkutub

ستتمنع أكثر من اللازم في رفع غطاء وجهها الذي يجب عليه رفعه بطريقة أو بأخرى قبل انتهاء اللقاء. قال في داخله: هذه امرأة عمانية في متناول يدي لأول مرة منذ أتيت إلى السلطنة، امرأة في حياتي بعد وقت طويل من الوحشة العاطفية وإهمال نبال التي لم تعد تكترث لي.

ثم تذكر عدم صحة هذا القول، فقد التقى أول أيام وصوله إلى عمان بامرأة غير عمانية. كانت المرأة الوحيدة التي تعرف إليها أثناء إقامته في عمان، حيث جرت بعض اللقاءات بينهما. كانت تلك المرأة هي الممرضة الهندية التي عالجته عندما أصابه حرق في يده أثناء أحد الاختبارات الكيماوية. كانت تدعى متلدا، التقى بها مرتين في حجرتها في مبنى الممرضات، بحذر لا يقل عن حذر اللقاء بمنيرة. كان مجمع الممرضات قريباً من المستشفى. في البداية ظن أن اللغة ستكون عائقاً بينهما إلا أن متلدا كانت تجيد اللغة الإنجليزية إجادة تامة، بل كان العائق الذي بينهما قد قام لسبب آخر.

حدثته متلدا عن صعوبة الحياة في الهند وعن حاجتها الماسة للعمل بسبب قلة فرص الأعمال التمريضية وعن أملها في الذهاب إلى بلغاريا لتلقّي المزيد من التدريب التمريضي. سألها عن غاندي وفلسفته ومبدأ الزهد والسلم الذي عاش عليهما وكيفية إلهامه لأعداد كبيرة من الناس داخل وخارج الهند حتى صار الأب الروحي لنضال سياسي وإنساني في العالم بأسره. لم تكن متلدا تعي أياً من هذه الأمور عن غاندي، ما تعرفه عنه أنه أبو الهند الأول وأنه يحظى بحب كبير لدى أبناء الهند، وعند موته بكى عليه ملايين من أبناء بلده.

امتنع شهم عن ملاقاة متلدا لأنها طلبت منه الذهاب معها كل يوم

twitter:@dohat_alkutub

أحد إلى الكنيسة وجعلت ذلك شرطاً لاستمرار العلاقة على الرغم من أنه قال لها إنه ليس مسيحياً. أصرت متلدا على موقفها وقالت: ما دمنا جميعنا نؤمن بإله واحد، فلماذا لا تذهب معي لتتعرف على ديني وعقيدتي؟ ولهذا تملص من تلك العلاقة وقطع صلته بمتلدا.

شهم الآن في لقاء بفتاة محلية وهو أمر لم يحلم به قط وكان يعتبره من المحرمات والخطوط الحمراء التي يجب عليه ألا يتجاوزها كمدرس غريب في بلد استضافه بقصد تنوير عقول الأجيال القادمة. كان يتمنى بشدة الدخول ولو إلى سطح هذا المجتمع المنغلق على نفسه. وفي رأيه أن أفضل وسيلة إلى ذلك تكون من خلال عاطفة تربط بينه وبين إحدى الفتيات المحليات، وهذه منيرة تأتي من جهة لم يحسب لها حساباً. لقد عانى كثيراً الوحدة والوقوف أمام الطلاب والحديث عن ثاني أكسيد الكربون والأوزون وحامض الكبريتيك. الآن أي امرأة، مهما كبر عمرها، هي شابة، ومهما قل جمالها فهي جذابة، من خلال علاقة كهذه سينفس عن نفسه المكبوتة ورجولته المحرومة.

لم يكن متأكداً من الأسلوب المناسب اتباعه مع منيرة، فهي من دون شك خائفة منه ومن الذي أقدمت عليه بلقائها به. وضع صندوق العطر في جيب سرواله ومد يديه وأمسك أطراف أصابعها، بينما كانت تحاول إحكام غشاء وجهها بشدة. شعر بحرارة تصل إليه من أصابعها ولاحظ وجود طلاء لين على أظافرها. رفع أصابعها إلى شفتيه وقبلها وقال: منيرة، مرحباً بك حبيبتي وروح قلبي. قبل أصابعها للمرة الثانية، وعلقت بشفته العليا شظايا من طلاء الأظافر اللين.

twitter:@dohat_alkutub

شكرها على زجاجة العطر التي قدمتها له هدية. ارتاحت قليلاً لموقفه من الهدية التي تعبت في اختيارها وكانت تظن أنها لن تعجبه. اكتشفت طلاء الأظافر في شفته فأصابها هلع وبدأت تتنفس بصعوبة حتى ظنت أنها ستفقد الوعي. أرادت صابرة مواكبة العصر وأن تبدو لشهم كامرأة لا تقل في حداثتها عن نساء العالم الذي أتى منه. شعرت بالضيق الشديد من حمالة صدرها الوحيدة، التي ابتاعتها من ممرضة هندية تدعى لوردس كانت تبيع بالخفية في المستشفى ملابس نسائية وعطوراً تقول أنها مستوردة من باريس ولندن. نصحتها بشرائها لأنها تمنع ترهل الصدر، لكن صابرة أدركت منذ أول يوم اشترتها أنها ضيقة وأن الممرضة الهندية أقنعت غيرها من النساء بشراء بضاعة عديمة القيمة. وعانت صابرة من سخونة الطقس والعتمة المسيطرة على أرجاء الغرفة.

رأت صابرة قمة قارورة العطر تبرز من جيب سرواله فزاد هلعها وارتجفت أوصالها، فقد تقع على رجله فتنكسر. من الخوف الذي هي فيه، هجمت عليها صورة حمد وهو يحمل حجراً كبيراً يريد أن يرجمها به. كانت صورته واضحة في خيالها حتى أحست كأنه واقف خلف الباب يطرقه ويهدد بكسره إن لم يفتحا له. حاولت إخفاء ما يدور في داخلها من الصور المرعبة عن شهم لكي لا يرتبك ويقطع العلاقة بينهما على وجه الإطلاق. فما تعرفه عن الغرباء أنهم أشد خوفاً في هذه الأمور من بنات البلد أنفسهن.

نظرت صابرة إلى حائط الغرفة فرأت السحلية، المسمى محلياً اللغة، تزحف إلى كأس مملوءة باللحم تجمد الدم عليها، علقها مصبح من طرف مسمار هزيل على الحائط لتناولها في غداء اليوم

twitter:@dohat_alkutub

التالي، يوم الجمعة. وكعادة الناس في عمان الجمعة هو يوم أكل اللحوم والتغيير من أكل السمك الذي اعتادوه. حاول شهم بجهد جهيد إقناعها بالجلوس على السرير بدلاً من الوقوف، لكنها كانت تمانع بشدة خوفاً من أن ترتكب ما هو محرم أو تنزلق إلى هوة لن تستطيع الخروج منها. هذا كان همها وأكبر خوفها، تمنت لو كانت أصيلة معها لتستشيرها إن كان من الصواب الجلوس على حافة السرير قرب شهم. فجأة صرخت صرخة عبارة عن خليط من الخوف والتوتر عندما رأت (اللغة) وكأنها تزحف على الجدار الأملس لتقترب منهما، بعد أن لعقت ما طاب لها من الدم المتعلق بكيس اللحم، في محاولة جادة للبحث عن غذاء آخر.

ظن شهم أن صرختها عبارة عن تجاوب مع القبلة القصيرة التي اختطفها منها بسرعة وهو يقودها نحو السرير. تشجع أكثر وجذبها إليه وضمها إلى صدره. شمت عرق الرجال المخلوط بنكهة التبغ، الرائحة التي اعتادت أن تشمها في ملابس جارهم راشد سائق سيارة الأجرة التى تستأجرها هي وأمها وموزة زوجة حمد وأصيلة عند الذهاب إلى منطقة السيب في الصيف لزيارة إحدى العوائل الصديقة فى المصيف المعروف ببساتينه ووديانه وأحواض سباحته. راشد كان يعتني بمظهرة الخارجي عناية فائقة، السجائر والكولونيا إحدى علامات هذا الاعتناء. كانت ملابسه النظيفة تفوح دائماً بمزيج الروائح الغريبة والمثيرة. اهتزت أعصابها من الإثارة وتنفست الصعداء ثم جمعت يديها وغطت بها وجهها، وشعرت باختناق رائع عندما دفع بها شهم برفق إلى السرير وشعرت بصدره يضغط على صدرها.

شاهدت (اللغة) المنظر ثم زحفت وغادرت من خلال فتحة صغيرة

twitter:@dohat_alkutub

في خشب الشباك. حاولت صابرة أن تصرخ مرة أخرى من منظر (اللغة) لكنها لم تجد القوة الكافية فشفتا شهم كانتا على شفتيها وصوته الهادئ يسكّن من روعها، وصلت لحالة من التوازن لم تشعر بها طول حياتها.

اعتدلا على حافة السرير وسمعته يقول بكل عذوبة: لا تخافي يا نور عيني، دعينا نواصل لساعة كاملة في هذه الغرفة الرائعة بل إلى أي وقت تستطيعين فيه البقاء. لا يهم يا منيرة سوى وجودك بجانبي، لقد دبرنا لهذا اللقاء طويلاً، لذلك نستحق التمتع به لوقت أطول. دعيني أقترح عليك شيئاً، لماذا لا تطبخين لي عشاء عمانياً كالعشاء الذي تعدّينه لأسرتك. أنا متأكد من أنك تجيدين الطبخ، أنت طباخة ماهرة أليس كذلك؟

مدّ يده إلى ذقنها ورفعها إلى أعلى وقبل أن يسمع ردها، طبع قبلة خفيفة على شفتيها ثم واصل قائلاً: انظري، جميع معدات الطبخ موجودة والطعام كذلك. أشار إلى اللحم المعلق بإصبعه وهو يضحك ثم قال: أفضل من ذلك دعيني أشتري هذه الحجرة البائسة من مصبح وأجعلها مأوى لحبنا الذي لن يموت، ماذا تقولين؟ كانت صابرة في ظنون مختلطة ومرتبكة، لكن سرها تعبير «حبنا الذي لن يموت». في داخلها تدرك أن مجرى حياتها قد تغير إلى الأبد بمجرد معرفتها بشهم ولكنها لم تكن متأكدة من استمرار العلاقة. تعرف أن أيامه وإن طالت ستنتهي، سيترك المدرسة والسلطنة ومنطقة الخليج بأسرها.

ردت صابرة قائلة: لن أستطيع المكوث أكثر من ذلك لأنني أخاف لو تأخرت أن أجد أمي وأخي حمد وأبي وزوجة أخي موزة

twitter:@dohat_alkutub

والحارة بأكملها في انتظاري أمام الباب ولا أظن أنك تريد تفسير أكثر من هذا. ثم إن صديقتي أصيلة التي تعرفها تنتظرني في السوق وإذا تأخرت عليها هذه المرة من المحتمل ألا تصطحبني في لقاء آخر معك.

خاطبها قائلاً: حبيبتي لا تخافي من شي نهائياً، سأقف بجانبك وستستمر لقاءاتنا. أنا مستعد أن أقابل أسرتك وأتعرف عليهم وأتعرف على أخيك. سأطلب يدك وستعودين معي إلى لبنان وفي يوم النصر والعودة الكبرى ستعودين معي إلى بلادي فلسطين. تناول يدها وطبع عليها قبلة وردد قائلاً: إلى فلسطين، هل سمعت، فلسطين. سقطت دمعة على خده، فنظرت إليه بحزن واستغراب وأدركت ما يعاني من ألم تجاه وطنه المسلوب. واصل قائلاً: دعك بجانبي، لم نكمل بعد الحديث عن حجرة البواب، أعدك لن أعود إلى بيروت إن تفضل مصبح علينا بهذه الحجرة. ضحك وقال: سأقضي جميع العطل معك في عمان، سنشتري سيارة ونذهب في رحلات بعيدة تشمل صلالة ومسندم وأماكن كثيرة أخرى.

— قالت: وماذا عن أسرتك، ألن يحزن أهلك على فراقك؟

— قال: نعم ولكن ما يهم هو أنت يا منيرة، هل تسمعين، أنت التي سأكتب لها أشعاراً كثيرة تصف عمق حبي وشوقي.

كان شهم يعرف أن أكبر مشكلة تقف عائقاً أمامه هي خوف منيرة من فقدانه بعد انتهاء مدة إقامته في عمان. لكن في تلك اللحظة لم يكن في وضع يخوله وضع ذلك الأمر في الاعتبار. أراد

twitter:@dohat_alkutub

أن تكون منيرة بمثابة الفتاة التي ترفّه عنه وتقلل هموم الغربة وتمده ببعض النبض وتعيد الحياة إلى يومه الطويل وشيئاً من الحيوية التي يتوق لها. غياب أي أنثى في حياته مسألة مستحيلة ولا بد من تغييرها. اعتدل في جلسته على السرير الحديدي وجذبها إليه، رويداً، رويداً التصق جسداهما واختلطت أنفاسهما. ولم تنتبه صابرة إلى أي شي يدور من حولها في ذلك الوقت بل كانت أشبه بالغريق. استمرت على هذه الحال حتى سمعت أذان المغرب في المسجد المجاور، فلفت عباءتها على جسمها وقالت: الآن يجب أن أعود قبل أن أندم يا شهم.

جمعت أطراف ملابسها وقررت أن تواجه شهم وتنظر في عينيه، إلا أنها لم تستطع واكتفت بالنظر إلى شفته العليا، ورأت عليهما بعض طلاء الأظافر التي سبغته به من أطراف أصابعها. ارتخت عضلاتها وهدأت عندما سمعته يقول: دعيني أحدثك قبل ذهابك من هنا عن فلسطين. هناك رمال في أرضي لا توجد إلا في الجنة، وزهور جميلة ونسيم بحر عليل. كل هذا في فلسطين ذات الروعة والجمال، حيث الأمسيات طقسها معتدل والموسيقى تصدح في المكان ورائحة القهوة تنعش شاربيها. سترين معي يا منيرة كل هذا. هل أنت مثلي تحبين السفر؟ أشارت له برأسها مدركة أن ما يتحدث عنه عالم بعيد المنال عنها ولكنها سعيدة بسماع مخططاته لمستقبلهما. مد يده ودعاها لترتاح على خدها محاولاً بذلك إقناعها بالبقاء، لكنها أصرت على مغادرة منتجع الحب المجنون.

بدأت تظهر بداخل صابرة صور متضاربة لكل ما حدث في اللقاء. شهم يتكلم عن أماكن بعيدة مثل فلسطين وبيروت وشخصيات تتمنى رؤيتها معه، لتتعرف على عالم خارجي فيه مختلف صنوف

twitter:@dohat_alkutub

الجمال والثقافة، أيام تختلف عن الأيام المملة التى تقضيها في مطبخ بيتهم خلف القدر والمكنسة والغسالة، بعيداً عن الكتب والقراءة التي تتوق إليها.

حاولت أن تبتسم وهي تستمع وتفهم ما يقوله. ثم مضى يخاطبها قائلاً: أود أن أراك دائماً يا منيرة. هنا انتبهت إلى أمر مهم هو العطلة الصيفية التي فيها يسافر فيها جميع المدرسين إلى بلدانهم. قالت: سفرك قرب ولم يبق وقت طويل لإغلاق المدارس.

قال: أعدك أن سفري سيكون الأخير، سأطلب من إدارة المدرسة السماح لي بالبقاء في عمان، سأتعلل بأمر معقول لأبقى معك على مدار السنة. آسف، اليوم قابلتك في هذه الحجرة البائسة، المرة القادمة سأدعوك إلى غرفتي الخاصة، طبعاً لو اكتشفنا مدير المدرسة ستكون مصيبة كبيرة. عندما تأتين سأريك صور أسرتي، أمي وأبي وأخواتي وإخوتي. ربما سمعت بالشاعر أحمد أبو طفلة. إنه والدي وهو شاعر فلسطيني مشهور في لبنان ومصر وسورية، ولكنني لم أجد دواوينه في عمان على الرغم من بحثي المستمر. فقد طلب مني خصيصاً أن أبحث عنها عند باعة الكتب. لم تسمع عن أحمد أبو طفلة فيدها لا تصل إلى الكتب العادية دعك من دواوين شعر، ما يأتي صوبها من المكتوب يأتي بصعوبة وهو مثل قصاصات الصحف التي تصدر في العواصم العربية. واصل حديثه قائلاً: أنا اصغر أبناء أسرتي. سأقرأ لك شيئاً من شعره، بالمناسبة أنا لم أكتب شعراً جميلاً في حياتي كما يقول والدي الذي يعتبرني مجرد مدرس كيمياء ولا علم لي بعلم النفس وحياتي مجردة من العواطف والأحاسيس. الذي لا يعرفه والدي هو أني كتبت الكثير

twitter:@dohat_alkutub

من الأشعار حتى أني ألقيت بعضها في أمسيات شعرية كثيرة في بلدان مختلفة.

كانت كلماته تصل إلى أذنها كالصور الواضحة. حاولت أن تصل إلى نوع من التوازن الذي يمكّنها من التفاعل مع ما يقول ويفعل. انسابت دمعة من عينها وجرت على خدها ومن ثم إلى غطاء رأسها المسمى محلياً باللحاف، وهي تحاول تثبيته على رأسها كلما اندفع إلى الخلف. شعرت بأنها تريد البكاء، فمدة بقائها مع شهم قد شارفت على النهاية، وبدأ جسمها يتصبب عرقاً واحمرت عينها من الدموع المختلطة بكحل العين. أحاطها شهم بيديه وقبلها على شفتيها، شعرت بأنها القبلة الأخيرة. بقيت كلمة «الأخيرة» عالقة بذهنها لا تستطيع إزاحتها من مخيلتها، تطاردها ربما إلى الأبد. لكنها لم تفصح لشهم عن تلك المشاعر المتشائمة.

twitter:@dohat_alkutub

٥

انتهى اللقاء وفتح شهم الباب بحذر وجال بعينيه في أركان المكان بأكمله ليرى إن كان خالياً عند خروج منيرة. ضمها إلى صدره وطبع قبلة قوية على شفتيها. خرجت مسرعة بعد أن أسدلت الغشاء على وجهها ومشت متجهة لملاقاة أصيلة والعودة إلى البيت.

كانت تجري وهي تجمع أطراف عباءتها حتى لا تسقط من على قمة رأسها الأملس من الرطوبة التي أغرقت شعرها وغطت رأسها. صوت شهم يتبعها كظلها، تكاد تسمعه وهي في هذه الهرولة: إنه يقول: لن أعود في أوقات العطل، سأبقى في عمان، ما لدي في الدنيا وطني المحتل وأنت يا منيرة. سمعت اسم منيرة وانتبهت أنها كذبت عليه في عدم إعطائه اسمها الحقيقي. ماذا سيكون رد فعل شهم لو عرف هذه الكذبة؟ واصلت في حديثها الداخلي قائلة إنها في يوم ما ستخبره أن منيرة ليس اسمها الحقيقي، أعطتة هذا الاسم

twitter:@dohat_alkutub

لكي لا تنفضح ويعرف الناس عن أمر علاقتها معه، لو باح لأحد بالسر الذي بينهما. ومنيرة اسم حديث عند مقارنته بصابرة، الذي تكرهه. هذا كل ما في الأمر، وستطلب منه المسامحة وأظن أنه سيسامحها فقلبه كبير وطيب.

كانت أصيلة واقفة بانتظارها في نفس المكان الذي تركتها فيه، وبائع القهوة المتجول، مطر العوفي، يحوم من حولها كأنه يحاول معرفة شخصها بينما يبيعها آخر فنجان قهوة في دلته. لاحظت أصيلة عندما رأت صابرة من بعيد أنها تعبة. قالت لها بصوت خافت: ما الذي أخرك يا صابرة؟ رفع الأذان منذ فترة طويلة، بدأ ينتابني قلق عليك وعلى نفسي، كنت خائفة أن يبلغ الناس الشرطة وتأتي للتحقيق معي لأني امرأة أتجول بمفردي في ردهات السوق من دون هدف.

ركبتا سيارة أجرة وكان السائق هذه المرة رجلاً متقدماً في العمر، في عجلة من أمره للعودة إلى البيت لتأدية صلاة المغرب قبل فواتها. ذلك سهل عليهما أمر العودة من دون أسئلة كثيرة أو توجس لمعرفة ما وراءهما من علوم وأخبار. في المقعد الخلفي للسيارة، أمسكت أصيلة بيد صابرة ولم تقل شيئاً خوفاً من أن تشد انتباه السائق. أنزلهما السائق أسفل عقبة سداب وقطعتا المسافة المتبقية للبيت مشياً وذلك خوفاً من أن يعرف مكان سكنهما. بمجرد نزولهما من سيارة الأجرة سألت أصيلة صابرة بتلهف: هل أمسك يديك؟. كانت أصيلة مصرة أن تحصل على تفاصيل وافية حول لقاء صابرة مع مدرس الكيمياء.

كانت صابرة في حالة مزرية وتعاني العرق الجاف على جسدها

twitter:@dohat_alkutub

وملابسها والضغط المحرق من حمالة صدرها ومن طلاء الأظافر المنتشر على يديها ووجهها ورجليها. كانت في حاجة ماسة إلى أن تخلو بنفسها وتتأمل وتعيد اللحظات التي قضتها مع شهم في خيالها. لم تكن في وضع يسمح لها بالحديث مع أصيلة والرد على أسئلتها العديدة والمتكررة ولكنها قالت: ألا تستطيعين الصبر حتى نلتقي غداً يا فضولية؟ أنت فعلاً فضولية يا أصيلة.. وضحكت ضحكة قصيرة لكي تظهر لأصيلة سعادتها بلقاء شهم.

قالت أصيلة: كلا لا أستطيع، أريد الأخبار بالتفصيل الآن كثمن لمرافقتي لك في هذه الزيارة.

قاطعتها صابرة قائلة: أهم من كل ذلك هل رأيتِ ما حصل في قارعة الطريق؟

قالت: تعنين المرأة التي تلبستها حالة الهستيريا والزار؟

قالت: نعم، في لحظة خاطفة يا أصيلة قلت في داخلي قد ننكشف أنا وأنت اليوم. الحمد لله استطعت أن أسرع في المشي وبذلك تعديت واختفيت عن الحشد الكبير الذي تجمع فجأة حول المرأتين ونجوت من مصيبة كبيرة محتملة في الوقت المناسب.

قالت أصيلة: أظن أنني أعرف تلك المرأة فهي سلامة طباخة مستشفى مطرح.

قالت صابرة: الحقيقة لم أحاول أن أتبين من هي فعقلي كان معك لأنك كنت بمفردك قريبة من وسط الحدث. خفت أن تدع

twitter:@dohat_alkutub

المتجمعين حولها يلحقون بي لأنها كانت تشير بأصابعها علي وتحاول الجري خلفي، بينما كانت رفيقتها تصدها عن ذلك. تصوري الذي سيحدث لو استطاعت اللحاق بي، لكانت بالفعل النهاية قبل البداية لكل ما نطمح فيه أنا وشهم ولانكشف أمر صديقتك.

قالت أصيلة: لو حدث ذلك لا سمح الله لوقعنا بالفعل في مصيبة لن ننجو منها أنا وأنت طوال حياتنا.

قالت: صابرة فعلاً كانت مصيبة كبرى.

عندما وصلت صابرة إلى البيت وجدت الأسرة في ضيق وهمّ شديدين، الأم وقعت فريسة لنوبة خطيرة من المرض، ترقد على سريرها في مدخل الغرفة، والدها خارج المنزل يتحدث مع نفسه، وحمد يجلس في الظلام يرغي ويزبد من شدة الغضب. عندما سمع حمد صوت أقدامها في حوش البيت نهض من مكانه وسألها بغضب وهو يضغط على الكلمات: أين كنت كل هذا الوقت أخبريني؟ وتقدم نحوها وهوى بصفعة قوية على صدغها وواصل صفعها حتى هوت على الأرض. صراخها أدى إلى دخول أبيها ليرى الذي حدث بينهما وليفض الاشتباك.

سألها حمد وهو يضغط على الكلمات: أين كنت كل هذا الوقت؟ أمك انهارت من المرض، أنت بنت عاقة لا تهتم بوالدتها ولا ببنات أخيها. ظنت صابرة أن حمد ينظر إلى طلاء أظافرها، لذا قامت بدس يديها تحت ثوبها قبل أن يتبين ذلك، فطلاء الأظافر من المحرمات على الفتاة غير المتزوجة. لو رآه حمد لرسخ

twitter:@dohat_alkutub

اعتقاده بأنها قامت بشي لا يستسيغه لذلك هرعت للجلوس قرب أمها. في محاولة لإدخال الرعب في قلبها، قام حمد بإشارة غضب وتحذير تجاه صابرة وخرج من الغرفة مسرعا قائلاً: لا أريد رؤيتك يا دميمة، هل تسمعين؟ وبدأ يتحدث مع والده حول كيفية التعامل مع الأمر الجلل الذي حل بالأسرة من بنتهم العاقة.

لمدة خمسة أيام لم تأكل أمها ولم تشرب، كانت تتألم من المشاحنة المستمرة في المنزل، لدرجة اضطرت صابرة أن تدخل بعض الماء والطعام اللين في فمها عن طريق القوة والجبر. وكانت بالطبع، تقوم بتجهيز الطعام لوالدها ولحمد وزوجته وبناته وتكنس المنزل وتنظفه حتى كادت تنسى جمال تلك اللحظات السعيدة والسريعة مع شهم. في اليوم السادس جلست أمها على السرير وطلبت طعاماً وشراباً، ففرحت صابرة وشعرت بالتخلص من الذنب والندم. زارتها أحداث يوم اللقاء في غرفة الحارس وتذكرت قبلات شهم ورائحته الرجولية وقبضاته القوية حول كتفيها وصدرها. فتشت جسدها بحثاً عن آثاره، فوجدت أثر قبلة على صدرها وبعض الكدمات الخفيفة على جيدها وخدودها تشبه لون فاكهة كرز. خف ألم الفراق والإحباط المصاحب له، وتمنت أن يتكرر اللقاء بينهما في غرفة مصبح.

تمر الأيام وصابرة تشعر بوجود شهم في حياتها، وهذا جعل رغبتها تزداد للقائه والقرب منه كي يضعا خطة لمستقبلهما على الرغم من معرفتها أن ما تتمناه ليس سوى حلم من المستحيل تحقيقه في الوسط الذي تعيش فيه. على الرغم من هذه الحقيقة البغيضة والمؤلمة تشعر كأنه يعيش معهم، فهي تحمله في خيالها كل لحظة ودقيقة. كانت تتمنى لو طلت من الشباك في يوم ورأته واقفاً

twitter:@dohat_alkutub

خارج المنزل، يتحدث مع والدها وحمد ويتوسل طالباً منهما يدها. مرات كانت تهرع إلى الخارج لتراه، لأن الأمر ممكن ومطلوب، كما كانت تظن، إلا أن شهم لم يأت قط.

كانت أصيلة تزورها في اليوم مرتين وثلاث مرات وتتحدث معها كثيراً عن شهم وعن خلفياته والأحلام التي تحملها عن مستقبلها. كان البعد عنه يؤلمها ويجعلها تشعر باليأس والندم على عدم استطاعتها تحقيق ما تحلم به مع شهم. أصيلة صديقتها الحانية عليها يرق قلبها لها وتتمنى لو كان في يدها شي تعمله من أجلها، فهي لا حول ولا قوة لها. لم يأت شهم لرؤيتها، وكانت عندما تسألها أصيلة عنه وعن سبب عدم سؤاله عنها تسكت ولا ترد على سؤالها، حيث لا تعرف ماذا تقول لها. ولكن أصيلة تلح وتقول:

ـ أنا لا أفهم ماذا حدث؟ أنا قلقة عليك لأنني أعرف مدى تعلقك به.

تظل صابرة في جلستها على الأرض تكتب على الرمل «شهم، أنا أحبك، أظن أن هذا هو الثمن الذي ندفعه من أجل الحب، العذاب والحرمان والبعد. أليس كذلك يا شهم؟

لم تعط صابرة أي تبرير لأصيلة لاختفاء شهم. كانت تقول ربما علم مدير المدرسة بالذي بينهما ولقائهما في ذلك اليوم في حجرة مصبح ونبهه وهدده إن لم يتوقف عن مغازلة الفتيات المحليات وملاقاتهن بإبلاغ المسؤولين عن حملة التدريس التي أتت بهم إلى عمان. اختفى شهم كي لا يخرب مستقبله ومستقبل الآخرين من المدرسين الذين جاءوا لكسب الرزق ولمساعدة عمان في تنوير

twitter:@dohat_alkutub

جيلها القادم من الشباب. كان المدرسون يريدون مواصلة العمل في هذا البلد الهادئ ويتجنبون أي عمل يفسد عليهم ذلك. كانت صابرة تخاف من أن الحديث المتكرر والكثير عن التجربة مع شهم سيضيع منها جمال وبريق تجربة هذا اللقاء، لذلك كانت تخاف أن مثل هذه التجربة لن تتكرر مع شهم أو مع أي رجل آخر. كانت تقول لصديقتها «شهم هو أول وآخر حب». كانت تود أن تحتفظ بتلك اللحظات القصيرة وتجترها عندما تشعر بالوحدة والعزلة.

قالت أصيلة:

— والآن ألا تريدين نسيانه ونسيان هذه العلاقة الغبية التي ربطتك بهذا الجبان الذي لا يريد التحرك تجاهك والسؤال عنك؟ من عادة الأحبة أن يسألوا عن المحبين خصوصاً الرجال، هذا دوره فهو رجل وحريته معه. بعكسك أنت، قابعة في البيت خلف حيطان سميكة لا يدعك حمد الخروج لزيارة خالتك المريضة التي لا يبعد بيتها عن بيتكم بكثير. ماذا حصل لك يا صابرة يا صديقتي الشجاعة التي كنت أفتخر بشجاعتها وأتمنى لو كنت أتمتع «بشجاعة» مثلها. أراك خائرة القوة سابحة في الأفكار ولا تستعملين عقلك المدبر الذكي في الخروج من ورطة هذا الحب الذي لا فائدة منه. أنا محتارة في أمرك.

ردت صابرة وهي ترسم صورة قلب مجروح على الأرض:

— الوقت ما زال باكراً على خلع حب شهم من قلبي كما تنصحيني.

twitter:@dohat_alkutub

ثم عرجت صابرة من دون شعور قائلة:

— كانت الغرفة حارة وكانت هناك (لغة) تنظر إلينا بعينيها المستديرتين واللامعتين ونحن جالسان على حافة السرير المتهالك، تقف على صرة لحم كبيرة علقها الحارس مصبح على الجدار تحت النافذة للتهوية لعدم وجود ثلاجة. خفت اللغة وظننت أنها قد تكون روح المرأة المسحورة التي جلبت الزار إلى رأس سلامة في سوق مطرح يوم اللقاء مع شهم. خفت أن ينزل الزار على رأسي ويدعني أنعش برأسي من جهة إلى جهة أصرخ وأخيف شهم وأفضح نفسي وأفضحه معي.

— قالت أصيلة وهي غارقة في الضحك: والله ضحكتني يا صابرة، تخيلي لو أصابتك نوبة الزار وأنت بجانب هذا المثقف الغريب الذي يحلو لك أن تقولي عنه إنه مثقف ويراك على تلك الحالة الانفعالية. من دون شك لأصابه الخوف وربما هرب من الحجرة وتركك فريسة لمصبح البواب ليفترسك، أو غادر عمان بأكملها. لا أظن أنه يعرف شيء عن معتقدات السحر التي نعرفها نحن ونعيشها حتى أصبحت مختلطة مع حياتنا اليومية. تصوري ما سيكون من أمري لو بقيت الليلة بأكملها في انتظارك داخل سوق مطرح. أما إن كانت تلك المرأة سلامة، نعم إنها سلامة بأم عينها، أنا متأكدة من ذلك تمام التأكد لأني أعرف سلامة تمام المعرفة.

— قالت صابرة وهي الأخرى تضحك بشدة من قصة سلامة والزار: بالفعل كنت ستنتظرينني حتى الصباح؟

twitter:@dohat_alkutub

— قالت أصيلة: ليس إلى الصباح فقط ولكن لسنة بأكملها، هل كنت أستطيع العودة إلى البيت من دونك؟ مستحيل، أفضل الموت ولا أفضحك وأفضح نفسي.

— قالت صابرة: حارتنا وعاصمتنا بأكملها لا تصلح للغرام، أين نحن بنات هذه المدينة من بنات بيروت والقاهرة وعمان واليمن والسودان، أقرأ في الجرائد أن الحرية في متناول يد كل فتاة لتحب من تشاء وتدرس إلى متى تشاء وتذهب أين تشاء. أما أنا وأنت فكتب علينا أن نقرأ عن هذا العالم الحر البعيد عنا. تشهد على عدم حريتنا قصاصات الصحف التي تأتيني ملفوفة بها الفواكه والخضار وصوت المذياع الذي أسمعه في سرية شديدة.

— قالت أصيلة: معك حق، ذلك عالم بعيد وصفته لي نرجس زميلتنا السابقة في المدرسة بعد عودتها من العراق عندما بعث بها أبوها لدراسة المحاماة. خلال وجودها هناك رأت عالماً ودنيا ستتعجبين لو حدثتك عنهما، لقد رأت كل ذلك عن كثب.

قالت صابرة: لقد شرح لي شهم ذلك اليوم القليل عن بلده المسروق فلسطين وعن بيروت وأسرته. قال إن أخواته يعملن ووالدته طبيبة أسنان.

مرت أسابيع وبدأت صابرة تشعر بتجربة غرفة الحارس تضغط عليها، اشتد الإحباط واليأس من انتظار شهم. اجترّت الأحداث وتذكرت السرير الحديدي والفرش المتسخ وعقدت مقارنة بين

twitter:@dohat_alkutub

قسوة الدنيا والمحيط الذي تعيش فيه من ناحية ورقّة شهم من الناحية الأخرى. تحولت الأحداث، بعد تأمل إلى رمز يعوم في الفضاء ولا قرار له. كل شيء لم يعد ملموساً بل معلقاً في فضاء خال بعيد عن اللمس والتجربة. ذلك دفعها إلى إعداد كتاب جديد من ثماني صفحات، أوراقه مرتبة ومغلفة بعناية فائقة. كانت الكتابة محصورة في الصفحة الأولى، لم تكتب على الصفحة الثانية ولا الصفحات التي تليها. جاء في الكتاب ما يلي:

ذات مرة من المرات كان هنالك رجل سافر في بقاع الدنيا السبع. كان طويل القامة قوي البنية وله عيون جميلة. ذهب إلى بلاد قاسية ومدن مدهشة وأماكن غامضة. ذات يوم بينما كان المطر ينهمر، وصل إلى شاطئ عمان في مركب صغير اشتراه من الصين، أرسى سفينته في خليج قبالة عمان وطفق يسبح ويصطاد السمك ويتاجر مع أهل البلاد. كانوا يسمونه «الرجل الذي رأى كل شيء» رغم أنه كان يردّ ضاحكاً بقوله: لا يوجد رجل قد رأى كل شيء. ذات صباح أشرقت الشمس فقفز من مركبه وغطس في ماء البحر ورفع يديه فوق رأسه وسبح في مياه البحر، بجسمه العاري الذي خبر البحر وشؤونه. لم يكن يعرف أن هنالك فتاة كانت تراقبه في صمت، من نقطة بعيدة فوق الصخور على البر. كانت مختفية في المنطقة التي تحيط بالبحر، تراقبه وهو يسبح، معجبة بجمال جسمه وتناسقه، أعجبت برجليه القويتين القوية حينما خرج من البحر وتمدد على مركبه كما يتمدد الولد الصغير. أحياناً تمضي كل اليوم في مراقبته، لدرجة صارت تعرف عنه كل كبيرة وصغيرة. كان هو الرجل الذي أرسله القدر لها ليكون حبيبها الأبدي.

اجتمعا مرة واحدة، بعد انجذاب قوي بينهما، عرف أنها تراقبه

twitter:@dohat_alkutub

وعرفت أنه شعر بوجودها. تم اللقاء في قلعة مهجورة أعلى البحر حيث جلسا على بساط أحضره من مركبه وأكلا ثمر النخيل. قرأت له من شعرها وقرأ لها من شعره، أعطته هدية بسيطة عبارة عن خاتم من العقيق وقبّلها على يدها برقّة لدرجة أنها لم تكن متأكدة من أنه قبلها فعلاً. أرادت أن تفصح له عن حبها أكثر وأكثر، لأنها كانت متأكدة من عدم إمكانية اكتشاف الأمر. كان حبهما قوياً ومثالياً، فكيف ستغضب الآلهة إذا عبّرا عنه في ذلك المكان الذي يغمره الهدوء والسلام؟ كان الرجل إنساناً نبيلاً وذا شرف، علمته تجاربه مع الثقافات المختلفة أن يكون حكيماً وعاقلاً. «قبل ذلك سأسجل زيارة لوالدك» قال لها.

عندما سمعت هذه الكلمات انفطر قلبها وخافت. كانت تعرف أن والدها لن يوافق على الرحالة، الرجل الذي يكتب الشعر والذي سافر إلى أماكن كثيرة وفوق ذلك فهو ليس رجلاً عمانياً. تيقنت عندها أنها لن تستطيع أن تأخذ شيئاً من العلاقة غير الجلوس في القلعة والاستماع إلى صوت الأمواج وزغزغة النورس. ذات يوم سافر البحار، جاءت إلى الخليج فلم تجد مركبة، تحطم قلبها وفي نفس الوقت شعرت بفرح غامر. اللحظات التي قضياها معاً في القلعة ستظل خالدة مدى الدهر، وسيقدم لها دوماً ثمر النخيل على البساط وتغني الطيور وتلطم الأمواج صخور الشاطئ تحت القلعة. حصلت على لحظات جميلة ومثالية، لذا كانت دائماً ما تقنع والدها برفض الخطاب العديدين الذين يتقدمون لزواجها لأنها ما زالت على حبه.

شعرت صابرة بأن تغييراً كبيراً حدث في أسلوب حياتها، فهي الآن تحب. فرحت بذلك وامتلأ قلبها بالكبرياء والفخر خاصة بعد

twitter:@dohat_alkutub

إتمامها كتاباً آخر جديداً. فكرت أن تعطي القصة لأصيلة لتقرأها، لكنها خافت أن لا تفهم أصيلة الكثير عن مغزى القصة حتى ولو اطلعت على أدق التفاصيل، كما لن تستطيع تقدير الأفكار الجميلة واللحظات الرائعة التي تصفها في الكتاب عن أبطال القصة. ما سيحدث هو أن فشل أصيلة في فهم لب القصة سيحطم الشيء الجميل الذي تعبت صابرة في تجهيزه وتأليفه وإنتاجه.

احتفظت صابرة بالكتاب في الحفظ والصون لمدة أسبوع ثم أحرقته، لكن هذه المرة تم الحرق بأسلوب جديد مبتكر يختلف عن الحرق في نار المطبخ كما كانت العادة السابقة. ذهبت هذه المرة بعيداً عن البيت حيث أشعلت النار ورمت فيها أوراق الكتاب، ثم خلطت رماد الأوراق المحروقة مع التراب بيديها وأمسكت طرف لحافها ومسحت به ما تبقى من رماد وتراب. شعرت كأنها بهذا الرمز تخلصت من تجربة لقاء شهم، كأن ماء تسرب من بين أصابعها وهبط على الأرض الحارة تحت قدميها. عند عودتها إلى المنزل رأت الأطفال يجرون عنزة من قرونها فتنفست الصعداء وزفرت الهواء من رئتيها فاختلط مع الرطوبة التي تملأ المكان. هذا يعني أن أحداً لم يرها.

ظهر لكل عاقل أن الموضوع يتعلق بمقدرة الإنسان في السيطرة على نفسه من أثر الأحزان والغضب والتجارب الصعبة. كيف يستطيع الإنسان أن يفتح بعض النوافذ في لحظة ما ويغلق نوافذ أخرى؟ كان الأمر برمته يدور حول الإرادة وحب الاستطلاع والبحث عن المعاصرة والحداثة. البحث عن هذه المبادئ بالنسبة لصابرة، يعني عدم الاهتمام وتجاهل الصعوبات التي تحيط بها جميعها والتجربة التي أطلت من الصورة الفوتوغرافية التي أخذها

twitter:@dohat_alkutub

المصور الهندي كرستين في الاستوديو الصغير النتن البائس وجعلتها تظهر بشكل مختلف عما كانت تتصور نفسها بل بشكل مرعب. هي الآن قد قررت القيام بتجربة حب مع شهم، وذلك أمر يتطلب قدراً كبيراً من الحكمة وبُعد النظر والتعقل.

وصلت إلى المنزل فوجدت العنزة المسكينة قد حررت نفسها من عبث الأطفال وجرت لتشم الهواء الطلق، غير مكترثة للتعب الذي أصابها.

وهي على وجبة الغداء، بدأ عقلها يخطط من جديد لمقابلة شهم، كأنها لم تمر بصعوبة أدت بحمد إلى ضربها وإهانتها ومنعها نهائياً من مغادرة البيت لأكثر من ربع ساعة في كل مرة تريد فيه الخروج، وبإذن مسبق منه مع مرافق، أياً كان ذلك المرافق، المهم أنها لا تخرج من البيت بمفردها.

صباح اليوم التالي ذهبت مع إحدى بنات أخيها على أنها ذاهبة إلى سوق السمك عند ميناء مطرح، مروراً بشارع المدرسة. كانت تحمل معها رسالة لشهم. رأت بعض الطلاب في فناء المدرسة ورأت نافذة فصل شهم مغلقة دليلاً على عدم وجوده بالمكان، اضطربت واضطرت لمغادرة المكان فوراً والمذكرة ما زالت مدسوسة في طرف من أطراف لحافها.

مر شهر كامل على محاولة لقاء شهم جرّبت فيه إيجاد وسيلة للقائه، ولكنها فشلت في اقتناص أي فرصة لذلك. انتفت كل الأعذار، في مرة قالت لحمد إن أمها تريد الذهاب إلى المستشفى، ومرة أخرى قالت: البنات يرغبن في الذهاب إلى سوق مطرح لشراء أغراض تنقصهن. في ليلة حلمت في منامها بغرفة التدريس خالية

twitter:@dohat_alkutub

من شهم والسبورة لا كتابة عليها. كانت هناك مجموعة أوراق بقربها قلم، وكل الخزائن مفتوحة على مصراعيها، تبرز منها العديد من القوارير من بينها قارورة العطر الذي أهدته له في اللقاء الأول. استيقظت من النوم فزعة، لكنها تماسكت على نفسها ولم تنخرط في البكاء رغم الحزن الذي ألمّ بها مما رأته في الأحلام عن المدرسة الخالية من وجود شهم. وشعرت بقسوة الحياة، إلا أنها بدأت فوراً في تأليف كتاب آخر في محاولة لمنع الألم من التسرب إلى حياتها ولرغبتها وحاجتها الشديدة للقائه. جاء في الكتاب ما يلي:

كان هناك ابن طبيب يعيش على جبل شديد الاخضرار، تنهمر عليه الأمطار وتنمو فيه أشجار الفاكهة وتتفتح الأزهار فتملأ المكان بالروائح المنعشة والألوان المتعددة. كان الطبيب شاعراً وكان ابنه يحفظ أشعار والده عن ظهر قلب. عندما بلغ الخامسة عشرة من العمر أحب الابن الأشعار المثيرة التي تمجد عظمة وطنه وكذلك وقع في غرام فتاة من مدينته، والدها تاجر أتى من بلد آخر. كان التاجر بخيلاً، يقفل كل الطرقات التي تؤدي إلى منزله، لذلك لم تستطع الفتاة لقاء حبيبها، عندما يحل الظلام وتقفل أبواب المداخل والمخارج. توصلت الفتاة إلى خطة محكمة: كتبت مذكرة طلبت من حبيبها الحضور وطرق باب والدها وإخطاره بوجود لص خطير قد سرق كل أمواله، وهذا ما فعله الشاب وسارت الخطة على ما يرام، خاف الرجل العجوز وصرخ وتصبب عرقه وبدأ يجري حول المكان في حالة شديدة من الاضطراب والبلبلة. قال الفتى: لا عليك يا سيدي، قم بمراجعة أشيائك الثمينة وأنا سأحرس الأبواب.

كان الفتى والفتاة يعرفان أن خزنة الرجل العجوز في الطابق الأسفل خلف بابين مغلقين بإحكام. ذهب الأب، يحمل المفاتيح

twitter:@dohat_alkutub

وهو يرتجف كالضب الخائف، تاركاً الفتى والفتاة لأكثر من ساعة يتبادلان الحب والغرام. عندما جاء وقت مغادرة الفتى، سمعا صوت الرجل العجوز آتياً من الطابق الأسفل. سأله الفتى: لا يوجد أي شيء؟ رد الرجل العجوز: لا يوجد شيء. أنا ممتن لك وأشكرك على مساعدتك.

لم تستطع صابرة أن تجد نهاية للقصة وفشلت في أن تجمع بين الحبيبين في قصتها، حيث بقيت الأقفال في بيت الرجل العجوز مغلقة بإحكام. كتبت مذكرة على هذا الكتاب الصغير لشهم تقول: الرجاء يا شهم إيجاد طريقة لمقابلتي، منيرة. بقي عليها أن تجد الطريقة المناسبة لتوصيل المذكرة له؟ أخبرت أصيلة بما تشعر به وبما خططت له.

أمسكت أصيلة بيد صديقتها وقالت: صابرة أرجوك ثم أرجوك انسيه وانزعيه من تفكيرك، لأن تفكيرك بهذه الصورة سيؤدي إلى تعبك ومرضك. هل تظنين أنه يفكر بك بنفس الطريقة التي تفكرين أنت به؟

قالت صابرة: ربما لا، ولكن في الواقع أفكر فيه. هذا هو الواقع يا أصيلة يا أختي.

قالت أصيلة: اسمعي ما سأحكيه لك وأنا بدوري سمعته من الحارة من ابن جيراننا، أظن أنك تعرفينه خلفان. يقول لأخواته ولأمه خالتي رشيدة: إن مدرّس الكيمياء الذي اسمه طفلة يلقبه التلاميذ باسم «طفيلة». خالتي رشيدة وبناتها ضحكن عندما سمعن هذا الاسم الغريب المؤنث الذي لا علاقة له بالرجولة. يقول خلفان: إن هذا المدرس دوماً يتحدث عن قصصه وأفعاله مع البنات في

twitter:@dohat_alkutub

بيروت، ويصف لنا دنيا غريبة حتى أصبحنا جميعنا نحلم بأننا عندما نكبر ونحصل على جوازات وتأشيرات سفر نرحل إلى لبنان، بدلاً من الدول المجاورة كقطر والسعودية وأبو ظبي والكويت، كما يفعل آباؤنا لنرى الحياة هناك ونتعرف على بنات كثيرات. سنفعل مثل الأستاذ ونذهب إلى لبنان، هذا المكان الساحر البعيد والغريب. وهذا يعني يا صابرة يا أختي أنه ليس مشغولاً بالمكان الذي نحن فيه، لا علاقة له بعمان بل روحه وإحساسه في مكان آخر.

تأوهت صابرة وضغطت يد أصيلة بين يديها وقالت: شهم ليس غبياً، أظنه يقول ذلك ليبعد أي شبهة له ببنات عمان وأي علاقة له بي. هذه هي الحقيقة يا أصيلة، أليس كذلك؟

أصاب أصيلة الذعر من أنها قد تكون أثارت غيرة صابرة وهي في هذه المرارة والحيرة والبعد عن شهم. قالت أصيلة: بيني وبينك لا أعرف ما الذي يدور في رأس شهم وهو يتبجح بهذا الكلام أمام الطلاب الصغار. الذي أخبرتك عنه هو الذي سمعته عنه من خلفان.

فتحت صابرة عينيها بوسع وكأنها عثرت على معلومات مفيدة وعلى حل هي في أمسّ الحاجة إليه لكسر هذا السكون بينها وبين شهم. واصلت قائلة: لقد وصلني ما سمعته منك الآن عن خلفان إلى حل مهم عساك توافقين عليه عندما أخبرك عنه. أم أنك كعادتك يا خوافة قد لا تتفقين معي عليه؟

قالت أصيلة وهي تضحك: كالعادة يا صديقتي أتوقع منك

twitter:@dohat_alkutub

الغرائب والعجائب. قولي ولا تخافي، لن أصدك عن أي شيء تنوين القيام به لأني أعرف أنك حتى ولو أردت فعل ذلك ستقومين بالذي يقوله لك عقلك، رضيت أنا أم أبيت. ما فائدة القول. أنا نصحتك نصيحة لوجه الله أن لا تتعرفي على شهم كي لا يتعلق قلبك برجل ليس مقيماً في البلد ولكنك لم تسمعي نصيحتي. ولم تكفك مكالمته على التلفون بل التقيت به ليشعل قلبك وإحساسك، ويدعك تتصورين أنك لا تستطيعين العيش من دونه. والآن كما تقولين توصلت إلى حل لهذه اللهفة خلف الأستاذ شهم: فأخبريني عنها وهاتي ما عندك، سأستمع لك فلدى وقت كافي لذلك.

قالت صابرة: لماذا لا أعطي خلفان رسالة مني لشهم ما دام شهم أستاذه ويراه باستمرار.

قالت أصيلة: حرام عليك يا صابرة، كيف تدخلين هذا الولد المسكين في موضوع خطر مثل هذا. قد يذهب ويتكلم مع الآخرين ويقول شيئاً وتفاصيل تحرجك؟ بالفعل لم أعد أعرفك يا صابرة تماماً، كما كنت أتصور، فها أنت تارة تخافين من الكلام والفضائح وتارة تريدين المقامرة والدخول في أمر حساس كالذي تنوين الدخول فيه. هذا الصبي الفاشل في الدراسة، يقضي وقته يلعب لعبة الأطفال المحلية المسماة «حواليس» ويجوب شوارع السوق من دون هدف، وهو غير صالح لنقل رسالة غرامية خطيرة لمدرّسه. ما هذا الكلام يا صابرة هل فقدت رشدك؟.

صابرة عنيدة ولا تتراجع حينما تقرر الإقدام على شيء، كل ما يهمها الآن هو وجود طريقة تصل بها إلى شهم. لا يهم كيف

twitter:@dohat_alkutub

تكون الوسيلة ومن يكون الشخص الذي يقوم بالدور. في المساء ومن حسن الحظ، وجدت صابرة خلفان بالصدفة عندما كان يلعب أمام بيتهم بسرور مع مجموعة من أصدقائه. ظلت تراقبه حتى انتهى من لعبه، فأومأت إليه ليأتي وليتكلم معها. عندما أتى بدأت كلامها بالسؤال عن أمه قائلة: كيف حال خالتي رشيدة وأخواتك غنيمة وفاطمة ورضية؟. سلم عليهن جميعاً وقل لهن أنا والوالدة وموزة سنزورهن قريباً إن شاء الله؟. كانت تتعجل في عقلها للوصول إلى نقطة تربط ما قالته بالنقطة التي تريد التحول إليها معه وذلك طبعاً عن شهم وتوصيل الرسالة له. واصلت قائلة: كيف أنت مع المدرسة والدراسة والمدرسين؟ لقد سمعت من أحد التلاميذ أنك تقدمت وعلى وشك النجاح في الشهادة.

قال خلفان: سأنجح إن لم ينحسنا أستاذ الكيمياء؟ الكيمياء مادة أكرهها. قال ذلك فأخذ قلب صابرة يخفق وبدأ تفكيرها يسرع فيما ستقوله لخلفان قبل أن يغلق الكلام معها وتفقد هذه الفرصة الثمينة التي بين يديها. قالت بسرعة: هل تريد مساعدة من أستاذ الكيمياء اللعين الذي ينوي عدم إنجاحك في مادته ومن دون سبب؟ أنا لدي وسيلة، سأكتب رسالة لهذا الشيطان عديم الرحمة والإحساس وأهدده بأن أشتكيه إلى إدارة المدرسة لتبلغ هيئة التدريس العماني التي توظفه. أعدك بأنه سيخاف من تهديدي وسيمنحك علامات عالية تساعدك في النجاح، ويحسدك الطلاب الآخرون.

قال: إن كان كذلك فأرجوك خالتي اكتبي هذه الرسالة من فضلك وسأمرّ غداً صباحاً لآخذها منك.

twitter:@dohat_alkutub

قالت: هناك شرط واحد: أن لا تخبر أحداً عن هذا الموضوع. هل سمعت؟ لا تخبر أحداً كي لا يسمع بمؤامرتنا على المدرس المتعنت.

قال: ولا يهمك خالتي، لن أخبر أحداً. سأمرّ عليك غداً قبل ذهابي إلى المدرسة. جزاك الله خيراً للمعروف الذي تقدمينه لي.

فرحت صابرة للتوصل إلى طريقة مضمونة لوصول خطابها إلى شهم. قالت في سرها: لا أستطيع الانتظار حتى أخبر أصيلة بهذا النجاح، إنه فوز بالفعل. تنبهت إلى أنها لم تعط خلفان هدية تشجعه بها على الحضور لأخذ الرسالة حسب الاتفاق. قالت له: انتظرني لحظة يا خلفان. اختفت وأتت له من الداخل بنصف روبية قبضة من حلاوة الكرمل. لم يصدق عقله وهو يأخذها. ودّعها وهرول مسرعاً حتى غاب عن ناظرها.

دخلت إلى البيت وقلبها سعيد. بقيت لفترة قصيرة في فناء البيت تنظر إلى السماء الصافية والنجوم البعيدة وشعرت وكأنها تنظر إلى وجه شهم أمامها. دخلت إلى الحجرة ودخلت في نوم، وهي تترقب في أحلامها وصول الصباح لتعطي الرسالة لخلفان كي يعطيها لشهم.

أتى الصباح واستيقظت صابرة قبل موعد وصول خلفان بكثير. بقي قلبها يرتجف خوفاً من أن يراها أحد وهي تعطيه الرسالة الملفوفة بإحكام في قطعة من القماش قصتها من طرف لحافها القديم. ظلت تطلع وتدخل من الباب مترقبة وصوله والقلق يأكل ما تبقى من أعصابها التي لم تتلفها بعد مدة الانتظار والترقب

twitter:@dohat_alkutub

الطويلة. عندما رأته من بعيد يقترب صوبها ارتفع قلبها إلى أعلى قفص صدرها من الفرحة. أعطته الرسالة وبخفّة وحركة سريعة رفع طاقيته المسماة كمة ووضع الغرض على رأسه وأعاد (كمته) إلى مكانها. هرول مسرعاً تجاه الطريق العام يحمل الرسالة التي تقول الآتي: حبيبي شهم، اتصل بي على هاتف الصيدلية هذا العصر ضروري، وإن كنت قد فقدت الرقم فهذا هو الرقم من جديد..
منيرة ٤٢٨٣٥٣٩

رأى خلفان الأستاذ شهم في فناء المدرسة فجرى خلفه وحشر الرسالة في جيب سترته. التفت شهم إليه بغضب وظن أن الولد يعبث به.

قال: ما الأمر؟ ماذا تفعل يا خلفان، ستمزق جيبي. قال ذلك بصوت عال فلفت انتباه مدرس اللغة الإنجليزية الذي نظر بخوف إلى خلفان من أن يكون حاملاً سكيناً في يده يهاجم به شهم المسكين لشدة كرهه لمادته.

بعد أن ابتعد الجميع أخرج شهم الكتاب وفتح الرسالة وقرأها ثم طلب من خلفان مقابلته أمام باب المختبر حيث أعطاه هدية بسيطة كمكافأة على العمل الجريء الذي أنجزه. كتب شهم رسالة لمنيرة وأعطاها له وزاد قائلاً: تأكد أن تسلمها لمنيرة وليس لأحد آخر، أرجوك أعطها إياها في يدها اليوم فور رجوعك من المدرسة يا خلفان.

قال خلفان باستغراب: منيرة؟ من منيرة يا أستاذ؟ تعني خالتي صابرة؟

twitter:@dohat_alkutub

قال شهم: كلا منيرة، أعني منيرة التي أعطتك الرسالة لي. أرجوك لا تعطها لامرأة أخرى.

هز خلفان رأسه غير مكترث بما يقوله شهم وقال: أستاذ، ستجد أن مرسلة الرسالة هي خالتي صابرة، لا يوجد في حارتنا اسم منيرة. هذا اسم تسمّى به بنات مطرح لا بنات مسقط وخصوصاً بنات حارتنا، حارة التكية. قد تكون خالتي صابرة لم ترد الكشف عن اسمها الحقيقي فلدينا النساء نادراً ما يفصحن عن أسمائهن للغرباء. المرسلة هي خالتي صابرة، صدقني يا أستاذ.

هز شهم رأسه وقال: لا يهم من تكون، صابرة أم منيرة، إيمان أم فاطمة. المهم أن تعطي هذه الرسالة لمرسلة الرسالة في يدها، ولا تدع أحد يراك وأنت تفعل ذلك.

قال خلفان: لا يهمك يا أستاذ شهم، وأسرع يجري من أمامه. لم ينتظر خلفان نهاية اليوم الدراسي، بل هرع خارج بوابة المدرسة واتجه صوب بيت صابرة حاملاً رسالة تقول: «سأتصل بالهاتف الساعة السادسة مساءً». أعطت صابرة خلفان حلوى عمانية حمرا ممزوجة (بالفشار) بقيت من حفلة عيد ميلاد ابنة أخيها الصغيرة. فرح بها لأنه لا يرى مثلها سوى في يوم احتفال نصف شهر رمضان المسمى (القرنقشوة)، فأخذها وغادر المكان سعيداً يتلذذ بقطعة تلو الأخرى في فمه.

ذهبت صابرة في الموعد المحدد للحديث مع شهم بالهاتف في الصيدلية. طلب منها الصيدلي أن ترد له الجميل الذي يؤديه لها فقد عرف الآن أن المكالمة التي تأتيها هي من رجل، إما أن يكون

twitter:@dohat_alkutub

طبيباً أو مدرساً أو أحد التجار. القليلون في فترة الستينيات كانت لديهم هواتف في محلاتهم أو في بيوتهم. نظرت إليه باشمئزاز وأعطته ربيتين كل ما كان لديها من مال، أخذ الرجل المال بغضب وذهب ليجلس بعيداً عنها. انتهت المحادثة التليفونية بسرعة، فقد دهم شهم في تلك اللحظة مديرُ المدرسة واضطر إلى إنهائها بعجلة، لكنه وعدها بأن سيرسل لها بعض الأشعار عن طريق خلفان وسيرتب لقاء في أسرع فرصة ممكنة. وضعت سماعة الهاتف وغادرت المحل.

وهي على عتبة باب الصيدلية تذكرت فجأة قبلات شهم وكم كانت مؤلمة، وغرفة الحارس كيف كانت نتنة. صابرة لا تستطيع أن تنسى تلك اللحظات القصيرة الجميلة وهي بجانب من تحب. تحول شهم إلى محور لحياتها العاطفية والنفسية وإلى رمز للحداثة والمعاصرة، وأصبح أملها في المستقبل المشرق والآفاق البعيدة. الرجل يحمل في أنفاسه رياح البحر الأبيض المتوسط وعنده صور لهذا التفتح الذي تراه عليه، ظاهر في الصور الكثيرة التي عنده عن أهله وعن نفسه والأماكن التي زارها. أخبرها أنه رغم رحلاته وأسفاره الكثيرة يرى في وصوله إلى عمان أكبر فوز حصل عليه في عالم السفر والرحلات، لقلة الفرص السانحة لزيارة هذا المكان النادر والفريد لكثير من الناس الذين يتمنون زيارته. القدر منّ عليه وهو يحمد الله على ما أعطاه له من معرفة بأسرار علم الكيمياء وغموضه ومن كنز وافر من المعرفة في الأدب والشعر.

كانت مغرمة به وكان أملها كبيراً في حضوره يوماً ما إلى والدها ليتزوجها زواجاً أسطورياً يربط بين عمان والعالم الذي ينحدر منه. ستكون أول فتاة عمانية تتزوج من غير عماني. هذا الزواج سيكون

twitter:@dohat_alkutub

بالفعل زواجاً أسطورياً تحسد عليه. تتذكر أن أصيلة تضحك على الطريقة التي تفكر فيها صابرة وكثيراً ما كانت تقول: هل تظنني إنهم سيوافقون على زواج مدرس عربي من بنت عمانية؟ سيكون هذا حدثاً ترتجف له عمان بأكملها وليس حارتنا حارة التكية ومسقط فقط. صابرة أختى لا يفيد الحب في مثل هذه الحالات حتى لو كان حباً قوياً راسخاً، صدقيني. هل تتصورين أن هناك أباً فلسطينياً سيزوج ابنته من عماني أو من أي رجل آخر غير فلسطيني؟ لم أسمع عن ذلك على الرغم من تصفحنا أنا وأنت لجميع الجرائد والمجلات العربية التي تقع بين أيدينا.

قالت صابرة: وماذا عن هويدة ابنة المطربة صباح، ألم نقرأ أنها تزوجت من غير لبناني؟ أنها تزوجت من رجل من بلد تدعى كندا.

قالت أصيلة: لكن هويدة وأمها صباح، لستا فلسطينيتين، أظن أنهما لبنانيتان، ولبنان أكثر تفتحاً من فلسطين ومن البلدان العربية الأخرى كمصر والأردن وسوريا والسودان. هذا معروف عن لبنان. على الرغم من ذلك أمر زواجك من شهم سيكون من عاشر المستحيلات وليس فقط من رابعهن، هذا ما أريد قوله سواء آخذتني بما أقوله أم لم تؤاخذيني. يا صابرة عيشي الواقع حتى لا تصدمي صدمة كبيرة عندما يعلن عمي ناصر خطبتك من أول خاطب يقرع بابه طالباً يدك. هذه حياتنا يا صابرة شئنا أم أبينا. هذه عمان. أنت وأنا لا نعيش في الخارج، نعيش في عمان. هذا واقع مجتمعنا بناته، لا يعطين لغير عماني تحت أي ظرف من الظروف. لو هرب بك شهم، عمي ناصر وأخوك حمد سيعودان بك من حيث تكونين مختبئة معه.

twitter:@dohat_alkutub

ردّت عليها صابرة قائلة: أنا متأكدة من صدق مشاعره نحوي، فقد بذل كل جهده لإيجاد وسيلة نلتقي بها. كما تعرفين، التقينا، وذلك اللقاء يعني الكثير له وإلا لما كان سيدبره. ألا تصدقين ذلك؟ أنا متأكدة.

قالت أصيلة: أنت التقيت به في غرفة الحارس في المدرسة، لا أكثر ولا أقل ومرة واحدة فقط ولم يحاول اللقاء بك مرة أخرى ولم يبذل جهداً لإرسال رسالة تطمئنك عليه.

صابرة: إنه يكتب لي أشعاراً جميلة، انظري إلى هذا الشعر الذي تسلمته منه أمس. هذه قصيدة يخاطبني فيها بأنني شمسه وقمره.

أصيلة: ما هي فائدة الشعر والشعراء وما هو صدقهم؟ أنت التقيت به في غرفة الحارس العفنة ولن تستطيعي مقابلته في أي مكان آخر لأنك لا تعيشين في مكان يسهل عليك ملاقاة من تحبين. أؤكد لك شيئاً آخر: حتى ولو وعدك بالكثير لن يستطيع أن يوفي حتى بالقليل. هو شاب آتى إلى هنا من أجل الخبرة والاتحاد بين بلده وعمان، ليدرس وبعد نهاية عقده يعود من حيث آتى. سينسى مجتمعنا وسينساك معه، بل سينسى كل ما دار بينكما وكل ما كان. من يعلم؟ يمكن الأمهات الفلسطينيات كالأمهات العمانيات يحجزن بنات أخواتهن وإخواتهن أو جاراتهن أو صديقاتهن لأبنائهن ليزوجوهن منهم. لماذا يختلف الأمر لمجرد أن شهم فلسطيني؟ ربما أمه حجزت له إحدى الفتيات التي تريدها أن تكون شريكة لحياته.

twitter:@dohat_alkutub

صابرة: أنت لا تعرفين مستوى هذا الرجل ومستوى أسرته، أبوه طبيب وأمه كذلك وجميع أخواته يعملن. هو متحضر ومثقف وذكي وشاعر، كيف له عدم التغلب على جميع المصاعب التي تواجه حبنا. يمكنه التغلب على أمه إن أرادت إجباره على الزواج بمن لا يحب، وأمه كامرأة متعلمة مثقفة لن تفعل ذلك.

أصيلة: انسيه يا صابرة إنه رجل وبس، إضافة إلى أنه غير عماني. كيف له أن يطلب الزواج منك؟ قلت لك مرات ومرات وسأعود وأكرر وأقول مرة أخرى، إنه أتى للتعليم فقط وليس لربط مستقبله بفتاة صعبة وبعيدة المنال، اصحي من نومك وأفيقي من أحلامك.

وتبدأ أصيلة تحكي مأساة حدثت في زمن قديم، عندما كانت في العاشرة من عمرها: قصة «خالصة ومحمد». تقول: سمعت صراخ خالصة بإذنيّ الاثنتين يا صابرة ورأيت الدم المسفوح في حوش بيتهم، بينما كان والد خالصة يقول: هذا درس وعلى كل البنات الانتباه إليه. كأن خالصة ومحمد قاما بعمل تخريب في الحارة. كما عرفت أن الذي كان بينهم لم يتعد الرسائل التي مسكها عمي عامر، في إحداها يطلب محمد من خالصة ملاقاته بجانب المستشفى في وضح النهار، وليس في الليل. عمي عامر رأى في ذلك خروجاً عن الأخلاق ولم يتقبل فكرة أن ابنته تراسل رجلاً. ركض خلف خالصة ببندقية كان يحتفظ بها منذ الحرب الأهلية في عمان عندما كان جندياً، وأطلق عليها النار فأرداها قتيلة. عندما كبرت وعرفت الحقيقة بكيت حتى جفت دموعي من شدة الحسرة على مقتل خالصة. مقتلها سبب موت خالتي حليمة أمها التي أغمي عليها فوراً ولم تصح من غيبوبتها وماتت بعد فترة

twitter:@dohat_alkutub

قصيرة من ذلك الحادث المؤلم. ظل الحادث محور كلام الحارة وتحذيراً لجميع بنات حارتنا حارة التكية.

فكر شهم في مقابلة منيرة، أو صابرة كما يعرفها، مرة أخرى لأن اللقاء الأول كان محبطاً بسبب الخوف المتبادل وحجرة مصبح المزدحمة برائحته وأمتعته وأدويته. كان اللقاء مع فتاة تجاوزها الزمن وتعيش خارج التاريخ، هذه هي الفكرة التي كوّنها شهم عن صابرة في أول لقاء بينهما. كان اللقاء تجربة علمية عرف منها شيئاً عن الجنس الآخر في عمان المبعد كل البعد عن أعين الرجال العمانيين والعزاب الغرباء. على الرغم من ذلك استطاع اقتحام هذا السد العالي ووصل إلى البعيد والمعزول، إلى امرأة عمانية.

طالما تصور طبيعة المرأة العمانية وكيفية الاقتراب منها حال وصوله إلى عمان. تمنى لو استطاع الاقتراب أو التعرف على إحداهن قبل انقضاء مدة عقده في التدريس. كان يتمنى الدخول إلى الوسط المحاط بالغموض. هذه منيرة، أو بالأصح صابرة كما عرف عن اسمها الحقيقي، تأتي إليه من دون عناء أو تعب. العناء كان في ترتيب اللقاء فقط. كان سابقاً يقول عندما وقعت عيناه على أول امرأة عمانية عند وصوله إلى مطار بيت الفلج في نهاية شهر آب الحار في سنة ١٩٦٥ إنهن «نساء مكبلات بقيود التقاليد». ضحك لأنه تذكر كيف كانت صابرة تصر على الاحتفاظ بغشاء وجهها حتى وهو يحاول تقبيلها أثناء اللقاء الحميم الذي تم بينهما، استبعد حدوث مثل هذا الأمر مع امرأة لبنانية أو فلسطينية.

القصص التي أرسلتها له منيرة ــ صابرة محاولة سخيفة ومرتبكة، اتضحت له ضآلة تعليمها ومحدودية تطلعها، فأشفق عليها. هي

twitter:@dohat_alkutub

بنت تحب العلم والتطلع لكن الخوف من استعمال العلم للخروج من المعتاد ولركوب المعصية يدع أولياء أمرها يحرمونها منه. قدر شجاعتها ومحاولتها المستمرة في التغلب على الأمية. بجانب ذلك أحب عطرها الغريب المختلف ورائحة أخرى بجانب رائحة العطر التي كانت متعلقة بملابسها، رائحة البخور، التي لم يشم مثلها سابقاً سوى في الكنائس الأرثوذوكسية في فلسطين ولبنان. لم يدرك سابقاً أن هناك مجتمعات تعيش على رائحة البخور وتستعمله استعمالاً عادياً كما في عمان. لقاؤه بمنيرة ـــ صابرة كان بالنسبة له درساً اجتماعياً لم يكن ليناله لو لم يتعرف على امرأة وظل محصوراً بالاختلاط بالرجال. الرجال بطبيعتهم لا يخوضون في أمور خفايا مجتمعاتهم وخباياه ولا يصلون مع الآخرين حتى إلى سطحية المواضيع دعك عن الانغماس في الجذور.

تساءل شهم عن طلاء أظافر منيرة ـــ صابرة الذي انتشر على ملابسه ووجهه. كاد يفضحه أمام مصبح والمدير وزملائه المدرسين. تذكر تلك الحادثة وضحك. بدأ يقارن بين منيرة ـــ صابرة وحبيبته نبال. نبال فتاة متحررة منطلقة إلى أقصى حد. وهو، على سبيل المزاح كان يقول لها بأنه سيلقبها بلقب «نبال منطلقة». وكان يحب هذا التحرر الذي يدعها تقترب منه دون أي خوف أو ارتباك. على عكس منيرة ـــ صابرة التي كادت تقع مغمى عليها ذلك اليوم من الخوف كلما اقترب منها محاولاً التقاط يدها. كان تقبيلها بالفعل مشكلة، أخذ وقتاً طويلاً ليقنعها بتلهفه للصق شفتيه بشفتيها. في نهاية الأمر اضطر إلى اغتصاب قبلة مهزوزة منها والتالية بالقوة. نبال أخبرته أنها في مرة اعتصمت أمام ثكنة عسكرية إسرائيلية لمدة شهر داخل الأراضي المحتلة ولم تستطع

twitter:@dohat_alkutub

الشرطة إجلاءها إلا بعد أن داهموها في الفجر. رميت في سجن لمدة ستة أشهر، لم يعرف عنها أهلها أى شيء. ثم أقدمت على أمر جلل عندما نذرت حياتها للمقاومة.

هذه المرة سيحاول إقناع منيرة ــ صابرة بالتخلي عن بعض الخجل الذي تتحلى به. لا يود أن يبعدها عن متعة الجلوس بجانبه، فهو يمني نفسه بالبقاء معها والوصول إلى مثل ما يصل إليه مع نبال من دون توتر أو قلق، بل يريدها أن تشعر بكمال كل ما يقومان به. هو رجل مختلف من حيث إنه مثقف مطلع واسع الأفق يؤمن بمساواة المرأة بالرجل، لذلك ما يدور بينهما لا تدخل فيه أمور العار والفضيحة والشرف أو أي من هذه الأمور التافهة والأفكار البالية التى يستعملها الرجل خصيصاً لغاية واحدة هي إخضاع المرأة لإرادته والقبول بسيطرته عليها وتكبيل حريتها بقيود ثقيلة لا تنفسخ منها مدى الأبد بل وتحرمها من المساواة به فكرياً وإنسانياً. أفكاره هذه يجب عليه إقناع منيرة بها، هو رجل مختلف ومن عالم آخر.

بالفعل كان هذا هو تفكير شهم، وقد يعود الفضل لنبال التي أخرجته من نطاق التفكير المحدود والدخول إلى الانطلاقة التي تعدها من أهم حقوقها الإنسانية. تفكيرها مدها بطاقة للمقاومة والقدرة لتقوم بمهام ثورية تؤمن بها، كالاشتراك فى المسيرات العالمية التي تنظم من أجل محاربة القهر والاستبداد الذى تمارسه إسرائيل ضد أبناء شعبها. كانت تقضي شطراً كبيراً من السنة في تتبع المسيرات والكتابة المستمرة في الصحف والمجلات عن الأضرار التى تصيب أبناء وطنها من تعنت القوات الإسرائيلية المحتلة. كانت نبال تؤمن بأنه لو لم تكن لديها هذه الحرية لاقتصر نشاطها

twitter:@dohat_alkutub

الثوري والثقافي على الركون في البيت ربما خلف قدر تغلي، لا يعنيها العالم الخارجي بشيء ولا تستطيع مشاركته في همومه أو حتى فهمه. كانت تعرف أنه لا فائدة من ذلك. الأحداث الأليمة التي حلت بأبناء وطنها لم تترك متسعاً للتخاذل والرضوخ عند المرأة والرجل على السواء. لهذا دفع بها والداها وبأخواتها وإخوانها إلى أحضان العلم والتعليم. سيخبر منيرة ــ صابرة ــ عن ذلك خصوصاً أنها كما لاحظ تتطلع إلى دنيا تبزغ فيها وتقوم بمهمة تثبت بها وجودها كالكتابة ونشر ما تكتب، والسفر الذي هو أحد أحلامها لتوسيع أفقها.

اختلطت نوازع الطبيعة الهائجة مع أساليب الفكر الهادئة عند شهم. كان يود معرفة البيئة العمانية والطريقة التي تلبس بها العمانيات الملابس الملونة التي يراها عليهن وماهية تلك الملابس ومهامها وطريقة لبس الرجال للخناجر والمناسبات التي تلبس فيها وعمائم الرأس. بالنسبة له كل هذا شيء جديد ولم يره سابقاً سوى في الأفلام التاريخية. كان معجباً بالحناء على أيدي صابرة ورائحة جسدها الغريبة والخجل الذي يبدو عليها والارتباك الذي يسيطر على شخصيتها وهي بجانبه. قارن ذلك مع شخصية نبال في بيروت، عطرها الجذاب ونعومة بشرتها ولباس البحر على الشاطئ وتحررها الذي يعده بعض أصدقائه ربما أكثر من اللازم. الوضع مع صابرة مختلف، هذه امرأة تطلب مقابلته وتقدم له الهدايا، أما نبال فلا متسع لديها لأي من ذلك وما تريده هو أن تكون الشخصية التي تريد من دون مزاحمة أو قيود ومن دون منازع.

مدفوعاً بكل هذه النوازع المتضاربة كتب شهم المزيد من الشعر

twitter:@dohat_alkutub

لمنيرة ــ صابرة وأرسله لها مع خلفان:

بورتريه(*)

وطن هارب

في دمي

هل يخبئني...

أم أخبئه

خلف سبورة الدرس
خارطة نصفها مطر
....ومناف
ونصف شعار
والمدار الذي لفني
كسؤال يتيم
على رحلة الطفل
يكبر...

(*) عدنان الصائغ، **تحت سماء غريبة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بورتريه، ص ٢١.

twitter:@dohat_alkutub

وهو يواجه عيني معلمه
دامعتين وراء الإطار
سوف يسألة ضابط السجن
محتدماً:
ـــ كيف سربت بين خطوط الطباشير
هذا الحنين...؟
ويطفئه في الجدار.

ابتسمت صابرة وواصلت قراءة قصيدة أخرى كتبها شهم، قالت في داخلها من أين له كل هذة الأفكار وكل هذا الإبداع؟ قارنته بنفسها والوقت الذي يستغرقها لتكتب سطوراً قليلة!

القصيده الأخرى هي:

قصائد الرحيل(*)

ذئاب سود
تتسلق ذاكرتي
تنهش جثث الأيام المنسية
في الأرض الحرام
وتتركني

(*) عدنان الصائغ، **تحت سماء غريبة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، قصائد الرحيل، ص ٨٧.

twitter:@dohat_alkutub

ــ كل مساء ــ
أعوي...
وحيداً
على ثلوج أوراقي
في منافي العالم

*

أتطلع إلى صور الأصدقاء
في البوم الحرب
وأحصي: كم قنينة
سكبت ــ هنا، على طاولتي ــ
فوق حفر مقابرهم
التي سويت على عجل

*

يا لحنيني
كلما فكرت في السفر
قفز من عيني
طفلان مخضلان بالقرنفل والأسئلة
ووطن مدجج بالحراس
وامرأة لا تدري
كيف تدبرُ مسواق البيت
....
....

twitter:@dohat_alkutub

كلما فكرت في الغربة
سبقتني دموعي إلى الوطن
*
نصفك: وطني ضائع في البارات
ونصفك الآخر: يهيئ حقائبه للسفر
يلتقي نصفاك، كعقربين في ساعة عاطلة
ويفترقان، كغريبين على أرصفة المنافي الحامضة
وأنت مسمر إلى النافذة
لا تملك غير جواز سفرك المركون
.... على الرف
تبيض فية إناث العناكب.

صابرة قرأت الشعر ولفّت الأوراق في طرف لحافها، بينما جرى خلفان، وفمه مليء بالقشاط المليء بالفول السوداني ليلعب مع الأولاد خارج المنزل. لم تصح من شذى كلمات شهم المعبرة التي بدأت تدغدغ عواطفها بشدة، وتذكرت شذرات من القصائد القصيره التي بعثها لها. أعجبتها كلماتها ومعانيها حتى كادت تحفظها عن ظهر قلب كلمة كلمة عبارة عبارة. تسأل نفسها عن قدرة شهم الشعرية العجيبة التي تدعه يبدع الكلمات والأحاسيس التي تتسرب إلى الروح والوجدان بتلقائية وسلاسة، دون ثقل أو عناء. كان ذلك يجعلها تشعر كأنها تلمس مضمونها بروحها وجسدها، وتكاد تشعر بقطرات المطر الذي لا ترى الكثير منه في عمان. كانت تحزن على تسكعه وبكائه على الأرصفة البعيدة المنسية، وتحمر وجنتاها وهي تقرأ ملامسته للحلمتين من تحت

twitter:@dohat_alkutub

القميص. إنه شاعر لا يُشق له غبار. كانت تقرأ عليه هذه الكلمات:

قصائد المطر(*)

يلعق المطر
جسدك...
ياه...
كيف لا يغار العاشق

* * *

أمام المرآة
كان المطر
يتساقط على النافذة
وأنا كنت ألملم نهاياتِ الضفيرة
من دموع المشط
الفتيات
يحملن المظلات
خشية البلل
لذا...
يزعل المطر...

(*) عدنان الصائغ، **تحت سماء غريبة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، قصائد المطر، ص ٨١.

twitter:@dohat_alkutub

ويرحل
قطرات المطر
تتسلل تحت قميصك
تلحس غسل حلمتيك
وأنا أمام زجاج النافذة
ألحس دموع المطر
من يغسل للمطر ثيابه اللازوردية؟
إذا اتسخت بغبار المدينة
وأين ينام إذا رحلت السحب؟
وتركته وحيدا، ملتصقاً
على زجاج النوافذ المغلقة
وحين يفكر بمصاحبة امرأة...
من ستتسكع معه في الشوارع؟
وتتحمل بروقه ورعوده؟
....
....
واضعاً يده على خده
ويفكر في غربة المطر
أيها المطر...
ابق في الشوارع نزقاً
كالقطط والأطفال
ابق على الزجاج لامعاً

twitter:@dohat_alkutub

منساباً كقطرات الضوء
ولا تدخل في معاطف الأثرياء
إلى المحلات
خشية أن تتلوث يداك البيضاوان
بالنقود
المطر أبيض
وكذلك أحلامي.
ترى هل تفرّق الشوارع بينهم؟
المطر حزين
وكذلك قلبي
ترى أيهما أكثر ألماً...؟
حين تسحقهما أقدام العابرين
أيها المطر
يا رسائل السماء إلى المروج
علمني كيف تتفتق زهرة القصيدة
من حجر الكلام
حين يموت المطر
ستشيّع جنازته الحقول
وحدها شجرة الصبير
ستضحك في البراري
شامتة من بكاء الأشجار
المطر يعبر الجسر

twitter:@dohat_alkutub

المواشي تعبر الجسر
الغيوم تعبر الجسر
الحافلات تعبر الجسر
أيها الجسر ــ يا قلبي ــ
إلى متى تبقى منشطراً على النهر
ولا تعبر الضفة الثانية
ايها المطر
ــ يا صديقي المغفل ــ
ــ حذار من التسكع على أرصفة المدن المعلبة
ــ ستتبدد ــ مثلي ــ لا محالة
ــ قطرة، قطرة
ــ وتجف على الأسفلت
ــ لا أحد يتذكرك هنا
ــ وحدها الحقول البعيدة
ــ ستبكي عليك

تمت الاستعدادات والتقى شهم وصابرة في غرفة الحارس للمرة الثانية يوم الخميس بعد الظهر. هذه المرة جاء إلى اللقاء بمدخل مختلف عن المرة الأولى: أحضر معه الصور التي سبق أن تحدث عنها، عدا صورة نبال، أحضر صور فلسطين والقدس وقبة الأقصى وحيفا وكنيسة بيت لحم، وصوراً له وهو في بيروت وصوراً لوالده ووالدته. تحدث لصابرة عن مأساة فلسطين وآلام شعبه وطفولته في معسكر للاجئين، حدثها كيف سرق اليهود أشجار الزيتون من

twitter:@dohat_alkutub

جده، وكيف مات جده من الحسرة والألم. قال:

كان عمري سبع سنوات عندما مات جدي من الحسرة والهم، رفض شرب الماء ومات في إحدى خيام اللاجئين. كان متعلماً وفخوراً بنفسه، انفطر قلبه لأن البريطانيين سمحوا بحدوث المأساة. أتوا باليهود وملأوا بهم أرضنا. أبعدوهم عن أوروبا وأتوا بهم إلى أرض فلسطين العربية. تصوري يا منيرة.؟ قام والدي بدفن جدي وكان على الأسرة أن تتأقلم مع الوضع، وكان لا بد للحياة أن تسير من جيل إلى جيل ولكن والدي ووالدتي كان أكبر همهما تعليمنا أنا وإخوتي وأخواتي.

بدأت صابرة تتعرف على خلفية شهم أكثر وأكثر. فهمت بعض الأمور التي كانت تصلها مختصرة في نشرات الأخبار وقصاصات الجرائد وبدأت تنظر إلى مسألة فلسطين نظرة متفحصة وعميقة وتشعر بها وكأنها مأساتها فتعيش وقائعها وأحداثها. تمنت في يوم أن ترى هذا المكان عن كثب. تمنت أن يتزوجها شهم ويمنحها الحرية التي طالما تاقت إليها، خاصة تلك المجسدة في صور والدته وأخواته، ويأخذها إلى عالمه البعيد لترى مأساة شعبه. قد تصير هي الأخرى فدائية وتحارب عن مبدأ كما تفعل نساء فلسطين والعالم الخارجي وتنشر عنها الصحف والإذاعات كما نشرت عن الفدائية ليلى خالد وغيرها ممن نذرن أرواحهن لمحاربة الطغيان. هذا بديل من أن تجلس قابعة وسط البيت من دون علم أو ثقافة، تخيط وتطبخ قدراً تلو الأخرى، بينما فكرها متعلق بآفاق أخرى.

لقد جازفت وخاضت مع شهم هذه العلاقة الغرامية لفرض ما

twitter:@dohat_alkutub

تعتبره حقها في أن تحب من تشاء. أحبته لأنه نفحة هواء خارجي مختلف والاختلاف هو ما تتوق إليه. هناك في جزء آخر من العالم، النساء نلن حظاً وافرا من العلم وفرص العمل، إحدى أخوات شهم مدرّسة والأخرى ممرضة، لماذا لا تكون مثلهن؟ بدأ خيالها يجري خلف صورة الممرضة والمدرسة، كيف ستكون لو كانت هي الأخرى ممرضة، ولو قادت صفاً بأكمله ووقفت أمامه تشرح المواد المختلفة؟. لا تتصور كيف لكنها تتوق إلى ذلك.

انطلقت صابرة في الحديث والتجاوب الثقافي والفكري مع شهم. أخبرته عن البخور والعطور التي يشمها في نساء عمان.. وطلب منها وصفاً مفصلاً لخلطات البخور التي قالت إنها تقوم في البيت بتركيبها وطبخها. سألها عن مكوناتها إذ استهواه التركيب الكيماوي للبخور وأراد أن يكتب الوصفة ويختبر صنعها مع التلاميذ. أخبرته أن محتويات البخور مجموعة كبيرة من الزهور والورود والأخشاب المجففة كالصندل والعود والعطور الخالصة. عندما سمع كلمة عطور استوقفها فوراً والذعر في صوته قال: ماذا تقولي عطور؟ كيف ذلك؟كيف تطبخ العطور؟ العطور لا تطبخ يا منيرة لخطرها. صدقيني أنا مدرّس كيمياء وأعرف ذلك. احذري من القيام بذلك وإلا تحولتِ وكل ما حولك إلى شعلة.

قالت: نعم عطور، وماذا تظن غير ذلك؟ كيف للبخور اكتساب الرائحة الجميلة التي تكتسبها سوى من العطور؟ وأخذت تضحك كثيراً من ارتباكه وخوفه من مسألة طبخ العطور.

قال: ولكن العطور إذا طبخت أصبحت خطرة وحارقة؟

twitter:@dohat_alkutub

قالت: بالفعل إنها خطرة وتحرق، وبعض النساء اللواتي لا يجدن تحضير البخور احترقت وجوههن وبعضهن اشتعلت بيوتهن بأكملها. واصلت قائلة: أقترح عليك أن تأخذ بعض البخور هدية لأمك وأخواتك، سأعمل لهن بخوراً خاصاً من النوع الجيد. سأطلب من أصيلة مساعدتي في عمله لتكون هدية تقليدية من صميم البيئة العمانية لتتعرفوا على هذا النوع الخاص والفريد من البخور الذى لا يوجد مثله في أي منطقة أخرى من العالم. هذا النوع من البخور لا يتم تركيبه في البيوت سوى في عمان. ستصل إلى لبنان محملاً بهدايا فريدة في نوعها.

فتح كلام منيرة ــ صابرة عيون شهم على جوانب كثيرة في المحيط الذي يعيش فيه. مرت الساعة سريعاً في غرفة الحارس، لكن كان هناك تفاهماً تامّ بينهما.

بعد أن ودّع منيرة ــ صابرة، وهو في طريقي إلى حجرته، صادفه مدرس اللغة الإنجليزية جهاد وجلس معه في فناء المجمع واحتسيا القهوة.

ــ قال: لاحظت أنك تأخذ دورة مكثفة في علم الاجتماع والأنثروبولوجي، يا صديقي العزيز. ممكن أعرف اسم مدرستك؟

ــ رد شهم: إنها محاولة كي نفتح عيوننا على بعض الأمور (مدركاً أن أمر علاقته بمنيرة ــ صابرة بدأ يتسرب إلى المدرسين لذلك من التفاهة ان ينكرها) وواصل قائلاً:

ــ الأمر يختلف عنه في بلادنا. هل فكرت في فلسفة غطاء

twitter:@dohat_alkutub

الوجه الذي يسمى هنا (بالغشاوة)؟ أو الحناء أو البخور أو السيوف أو الخناجر و(الشاديش والكميم) التي هي الطاقيات؟

— قال جهاد: عن أي فلسفة تتحدث، أنت تصعّب الأمور وتعقدها، كل الذي أعرفه أن هذا المكان شديد الحرارة. هذا الذي أعرفه معرفة تامة. هنا الجحيم بعينه يا أخي يا شهم، أم لم تعد تشعر به لأنك دخلت إلى جو يبعدك عن اللهيب الذي نشعر به نحن زملاءك المساكين الذين ننتظر بفارغ الصبر وصول العطلة الصيفية لنهجر هذا المكان إلى مكان بارد كبلدي الأردن.

— واصل شهم قائلاً: هل لك أن تتصور نساء العرب في منطقتنا يقبلن بتغطية الوجه كما يحدث هنا؟ ستحدث ثورة نسائية هناك؟. فكّر في أمينة الزيات في مصر.

— قال: أمينة الزيات؟ لا تذكر تلك المرأة الشاذة، أم أنك تحب النساء الشاذات؟ لقد قادت نساء العالم العربي إلى مصيبة بعد مناداتها بعلم المرأة وبالمساواة وتحدي الرجل. بعد حملتها التحريضية هذه صار الرجال يحذرون الزواج، لقد زحفت على العالم العربي بالفعل موجة عنوسة كاملة.

— قال شهم وهو يتحاشى التعمق معه في هذا الموضوع لمعرفته أنه لن يأتي بنتيجة: الكثير من الناس في عمان بل والكثير من النساء، يريدون معرفة ما يدور حقيقة في العالم خارج حدودهم، هناك حاجة كبيرة إلى معرفة الغير وفهم قضايا العالم والانغماس فيه. هذا كل ما في الأمر، ونحن لا نتحدث عن تحرير المرأة وهذه الأمور.. وواصل قائلاً:

twitter:@dohat_alkutub

ـــ العمانيون يثيرون اهتمامي. إن أردت الصدق أقول فرصة وجودي بينهم في الحقيقة لا تعوض لفهم هذه البيئة. كان أسعدني عندما وافقت مديرية التدريس في لبنان على قدومي إلى هذا المكان المختلف!

twitter:@dohat_alkutub

٦

ألمّت بأم صابرة وعكة خطيرة وأستمر والدها في هذيانه وجنونه ومخاطبته للأشجار والسيارات القليلة التي تمر من أمام بيتهم. يتكلم على الحر الشديد والتمر وعلى عمه الذي توفي قبل عشرة أعوام في حرب الجبل الاخضر وخلف لأبنائه مزارع تمور كثيرة في منطقة الحزم والرستاق. عملت صابرة جاهدة للاهتمام بأمها لكن المرأة العجوز قد فترت وفقدت مقدرتها على الحياة. بينما تقوم بمساعدتها كانت تأتيها صور والد شهم ومزرعته والجنود الإسرائيليين يطلقون الرصاص فيقتلون كل من حاول التصدي لهم ويستبيحون ما هو محرم. تقرأ شعر شهم فتتذكر نكبة فلسطين وتربط ذلك بالحريات المتوافرة في بيروت، تتذكر لقاءها معه في غرفة الحارس، فيزداد شعورها بالإحباط والفشل. كانت تتوق للخروج من السجن وتود كسر القيد الذي يجبرها على الابتعاد عنه، وذلك هو الوقت المزدحم بالمسؤولية وبالقيام بالواجب تجاه جميع أفراد الأسرة.

twitter:@dohat_alkutub

تمنت لو كانت مثل الفتيات المتعلمات اللاتي يظهرن في مجلات الجيل وأخبار الساعة وروز اليوسف حرات طليقات ومثقفات. ودّت أن تكون مثل أم شهم وأخواته وأن تصل إلى العالم الذي شجعها على معرفته شهم، وعرفت الكثير عنه من خلال اللقاءت القصيرة التى تمت بينهما.

إلا أن صابرة كانت تعرف أن ذلك نوع من الخيال الجامح الذي لا يمكن أن يتحقق على أرض الواقع، لا أمل لها أن تعيش حياة تختلف عن تلك التي مرت بها أمها وجدتها وها هي الآن تمر بها هي الأخرى. فهل من خلاص؟ قد يأتي الخلاص على يد شهم، من خلال اللحظات القصيرة في غرفة الحارس والأمل الضعيف الذي منحها إياه.

أصيلة كانت تشفق على صديقتها ولضياعها وسط المجهول، ونبهتها مرات ومرات من خطر القلق والمشاكل المتراكمة عليها من مرض أمها وأبيها. صابرة تستمع لكنها لا تدرك من أين سيأتي الخلاص الذي تحمله في داخلها ليل نهار؟ إنها تراه يملأ عينيها منذ أول لحظة تفتحهما في الصباح، لا وسيلة لديها لنيل غايتها.

قالت صابرة موجهه كلامها إلى أصيلة ذات مرة: ولكن شهم رجل عربي متعلم وذكي، ومثل هؤلاء الرجال لهم نظرة متسامحة للحياة وللآخرين، بالنسبة لهم المرأة ليست عبارة عن جسد بل عقل وروح ومشاعر. انظري إلى (أبوي) وأمي، هل فكر (أبوي) في روح ومشاعر أمي؟ أبداً، وهل يعرف أن لها روحاً ومشاعر؟ ما يريده منها هو الإنجاب لا أكثر ولا أقل، لكن لسوء حظه وحسن حظها لم تنجب سوى أنا وحمد. الشيء الوحيد الذي أقدّره في

twitter:@dohat_alkutub

أبي أنه لم يتزوج على أمي على الرغم من عجزها عن إنجاب عدد أكبر من الأولاد. بالنسبة لشهم العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة لا تنقص من قيمة المرأة، هذا ما قاله لي تكراراً، ولا تحط من قدرها، عليك قراءة الشعر الذي أرسله.

قالت أصيلة وهي تضحك:

أرجوك أريد أن أقرأ هذا الشعر لأتبين هذه الفلسفة الحكيمة التي لا أعرفها. أريد أن أرى ذلك الشعر، أين هو قد استفيد منه. هزت صابرة رأسها بالنفي، لأنها كانت مصممة على عدم إعطاء شعر شهم لأي شخص مهما كانت العلاقة التي تربطها به.

في اليوم التالي صحت صابرة من النوم وهي تشعر بصداع شديد أصاب رأسها ورقبتها وأسنانها، وشعرت بارتباك وخمول وكأنها سيغمى عليها. ظنت أنها ستموت قبل أن تكمل رواية شهم. عندما فاقت جرت إلى خلفان وأعطته رسالة وضعها فوق رأسه وغطاها (بالكمة)، فيها تطلب من شهم مقابلة بينهما فى عصر ذلك اليوم. جاءتها رسالة سريعة أخبرها فيها شهم أنه عائد إلى لبنان الأسبوع التالي لقضاء عطلته السنوية وهو بالفعل يود لقياها قبل مغادرته.

twitter:@dohat_alkutub

twitter:@dohat_alkutub

٧

التقى شهم وصابرة مرة أخرى في غرفة الحارس. كان اللقاء متوتراً. جلست هي على الأرض ووجهها نحو الحائط، وهو وقف منتصباً بجانب السرير، في عجلة من أمره. سألها ما بها؟ بعد دقائق تكلمت من دون النظر إليه قالت: شهم، خلال أشهر العطلة هل ستراسلني عن طريق الخطابات؟

قال: بالطبع، سأرسل الخطابات إلى مكتب البريد ليسلمها لمنيرة أحمد. لا تخافي أو تقلقي من ذلك يا حبيبتي يا منيرة، أعدك بذلك. سأرسل لك المزيد من الشعر، أنوي هذه المرة أثناء وجودي في لبنان طباعة ونشر ديواني الجديد، سأقدم الإهداء لك، أعدك بذلك، سأهدي لك كتاباً مثلما أهدى والدي كتاباً لوالدتي. انتظري وسيجيء اليوم الذي ترين فيه اسمك الجميل مطبوعاً على الصفحة الأولى من كتاب جديد من تأليف من تحبين (شهم أبو طفلة). بعد الكتاب ستأتي مسألة رحيلك معي إلى بيروت لتري

twitter:@dohat_alkutub

شارع الحمراء، أجمل وأشهر شارع فى العالم العربى، وسآخذك إلى الشارع البحري. يا له من منظر جميل يشابه في روعته شاطئي صور سداب ومطرح في سلطنة عُمان. أنا سأكتب عنك بل سأخلدك يا منيرة يا حبيبتي، وأخلّد بلدك الجميل عمان كما لم يخلده كاتب من قبل. ما عليك حبيبتي سوى الانتظار.

ما قاله شهم عن الكتاب والكتب والتأليف أقلقها بعض الشيء. وما أقلقها أكثر وعده لها بالإهداء! كيف تدعه يطبع اسمها على كتاب يباع ويتداول في الأسواق. فرضنا أتى هذا الكتاب إلى عمان وسمع عنه حمد أخوها، فأين تفر في تلك اللحظة من شرّه وغضبه؟

ـ قالت: شهم حبيبي أرجوك إن كنت تعزني وتخاف على سلامتي أن لا تفعل ذلك. لا تكتب الإهداء لي أرجوك. وهنا تذكرت أنه على كل حال لا يعرفها سوى باسم (منيرة أحمد) الاسم المستعار الذى أعطته له وهذا يعني أنه حتى لو كتب الإهداء لها فلن يعرف أحد ذلك؟ فواصلت قائلة: على كل حال أنت لا تعرف اسمي الحقيقي من البداية! أرادت اليوم وهي تودعه مصارحته بأمر إخفاء اسمها الحقيقي عنه!

ـ قال: ماذا تقولين. تصنع الغضب ثم انفجر ضاحكاً وقال: أعرف أن (منيرة) ليس اسمك الحقيقي.

ـ قالت: وهي بدهشة كيف عرفت ذلك؟

ـ قال: أخبرني خلفان ـ طبعاً من دون قصد عندما قلت له وأنا أناوله الرسالة لك، أعطها لمنيرة. تساءل المسكين بغرابة قائلاً

twitter:@dohat_alkutub

لمن؟ قلت لمنيرة. قال لا توجد فتاة فى حارتنا بهذا الاسم الحديث، الرسالة لخالتي صابرة. عرفت فوراً أنك خائفة من أن أعرف اسمك الحقيقى لسبب أو لآخر.

— قالت: ما دمت الآن تعرف الحقيقة فإذا نويت إهدائي الكتاب فقدّمه «لمنيرة أحمد».

— قال: الأفضل أن أهدية «لحرف الصاد في سلطنة عمان» ما رأيك؟ أعدك بأن أؤلف كتاباً آخر بجانب ديوان الشعر عن عمان قريباً إن شاء الله.

ظلا جالسين لمدة من الزمن، ثم قام بعدها شهم بعد أن نظر إلى ساعة يده.

قال: لم آتى بك إلى هنا لكي نقضي الوقت فى مناقشات ثقافية يا حبيبتي يا منيرة أو بالأصح يا صابرة. أدرك أنك تحبين الحديث عن الثقافة والمطالعة لكن لذلك وقت ولغرامنا وقت وهذا وقت الغرام. عندما نطق باسم صابرة شعرت بالخجل وتمنت لو كان اسمها الحقيقى بالفعل «منيرة» بدلاً من هذا الاسم القديم المتأخر، والذى كما قالت لها أمها إنها سمتها به لأنها كانت تنتظر وصولها بعد مولد حمد بفارغ الصبر. أخذ يقترب منها أكثر وأكثر.

قال وهو يبتسم: ما الذي سيحصل لخلفان، من أين ستأتيه الحلوى بعد سفري؟ تكون لديه مهمة كالمهمة التى وضعناها نحن على عاتقه؟

قالت: اطمئن سيجد ما يعمله من أجل الحلوى والنقود التي يشتهيها بشراهة تفوق شراهته للعلم. أمسك بيدها وقادها إلى

twitter:@dohat_alkutub

السرير الحديدي المنخفض وبدأ يداعب شفتيها بخفة حتى كادت تصرخ من إثارته لها ومدت ذراعيها لتحتضنه من دون شعور ـ وهذه أول مرة تتقدم بيدها إليه قبل أن يفعل هو ذلك. أدرك فوراً أنها بدأت تثق به وتطمئن إليه. ومن دون حذر غمرها بقبلات حتى نسيا وجود الكون الذي يحيط بهما ودخلا في بداية جديدة!..

نهضت صابرة ـ وكأن أمراً ما قد حل عليها ـ تبحث عن عباءتها وغشاء وجهها من دون أن تنظر إلى عيني شهم العسليتين اللتين طالما حلمت بهما. تعجبت من لونهما المختلف عن لون جميع العيون التي رأتها في حياتها وانهمرت دمعة ساخنة على خديها. بادر شهم وبكل رقّة إلى مسحها بأصابعه الطويلة ظلا في صمت حتى انسحبت صابرة بثقل متجهة إلى الباب من دون أن تقف لترى إن كان أمامه أحد. كانت تفكر في سفر شهم المفاجئ لقضاء العطلة الصيفية في بيروت، وفي الألم الصامت الذي دخلت فيه هذا اليوم.

غادر شهم السلطنة وتمت ترقية مدرس اللغة الإنجليزية جهاد إلى وظيفة مساعد مدير المدرسة. أخذت صابرة وأصيلة كل يوم تتسللان بخفة عند نومة القيلولة إلى مكتب البريد في مسقط على أمل أن يجدن رسالة من شهم، لكن شيئاً لم يصل منه. تذكّرت أنها لم تطلب منه عنوانه لأنها على يقين أنه سيراسلها. لماذا لم تصلها رسالة، لا تعرف. بدأت اهتماماتها في تتبع الأخبار، علها تستنتج شيئاً وتصل إلى حل لهذا اللغز الغريب والمحير. الأمر بقي كما هو حتى أنها نهضت في الصباح وهي تشعر كأن مفاصلها ستتفكك الواحدة تلو الأخرى وسيغمى عليها. أخذت تتقيأ وبدا

twitter:@dohat_alkutub

رأسها يدور. ذهبت إلى المستشفى للفحص برفقة أصيلة.

نتيجة التحليل أثبتت أنها حامل. صعقت من هول المصيبة ولم تعرف ماذا تفعل هل تحاول الانتحار؟ هل تحاول الهروب إلى الهند وعدم العودة نهائياً أم ماذا عساها أن تفعل وهي في وسط هذه المصيبة الشنيعة؟ أصيلة هي الأخرى لا حل لديها سوى مواساتها وتطمينها إلى أنها ستقف بجانبها.. بدأتا تتساءلان بطريقة غير واضحة عن كيفية التخلص من الحمل من جاراتهما ومن كل من يستمع لهما. لم يتوصلا إلى نتيجة. النصيحة الوحيدة التي سمعتا عنها هي تدليك البطن بقوة. صابرة وأصيلة فعلتا ذلك في كل مرة اجتمعتا فيها على انفراد: تدلك أصيلة بطن صابرة بقوة. تصرخ منها وتنهض من تحت أيدي أصيلة متفائلة بأن الجنين سيسقط فوراً. ذلك لم يحصل. يعاودن الكرة مرات حتى يئستا. وظل الجنين ثابتاً في مكانه.

الطريقة الأخرى تناول مسهل للبطن بكمية كبيرة. بدأت صابرة في تناوله من دون كلل. لكن كل ما فعله ذلك جعلها تستفرغ وتشعر بألم حاد تكاد منه أمعاؤها تتقطع.

لكن على رغم فشل كل هذه المحاولات لم تتوقف صابرة عن المحاولة ولم تتوقف أصيلة عن السؤال الخفي والعودة بالمقترحات إلى صابرة. آخر المقترحات هو القفز على الحبل أو من مكان عال! وبدأت صابرة تقفز من على أي شيء يصادفها. صادفها حمد في يوم وهي تقفز من على جدار قصير في مسلخة الحارة، فجرّها من يدها وقال: هل تظنين أنك صغيرة أم ماذا؟ تقفزين من على الجدران وتتسلقين الأشجار كأنك طفلة ولست عانساً تعدتها سنين

twitter:@dohat_alkutub

الزواج! لقد مرّ على بلوغك سنوات، ألا تستحين يا عنيدة يا ملعونة، تفرجي نفسك على الجيران والمارة من نساء ورجال؟ على هذا هل تريدين قتل نفسك يا فاسدة؟ وإن نجحت في ذلك من سيكون المسؤول؟ لن تموتي وتنتهي المسالة صدقيني سيكون هناك سؤال وجواب! لو كان الأمر غير ذلك لسمحت لك بالموت من دون منازع أو تردد. سأقتلك بنفسي لو أردت، لا عليك سوى الإشارة وسأقوم بذلك اليوم بل الآن من دون تردد ودمك سيكون حلالاً لما تستجلبينه لنا من عار ما دمت على قيد الحياة!

ضربها ضرباً مبرحاً. وهي في هذه الحالة من اليأس الذي كاد يؤدي بها إلى الجنون. كلما اختلت بنفسها في الحمام تحاول القفز المستمر على حبل الغسيل، قفزاً عنيفاً ظانّةً أن الجنين سيسقط. كانت تفرش غطاء على الأرض تأهباً لتلك اللحظة. لكن عندما لا يحدث ذلك تعتريها موجة من الغضب والجنون الذي يدعها تشد لحم جسدها وكأنها تحاول أكله وأكل ما بأحشائها. بدأت تظهر عليها كدمات واضحة غامقة اللون كانت تغطيها تحاشياً من أن تقع عليها أعين حمد.

الجميع بدأ يدرك أن وزنها يزيد بصورة ملحوظة. ظنوا أن ذلك من آثار الشباب والصحة وقلة العمل وهدوء البال. وهي في وسط هذا اليأس المر بدأت تكتب خطابات مليئة بالحب والشجن، ثم تكتب ردود تلك الخطابات بنفسها، شحنتها بإخلاص شهم وحبه لها وحسرته على عدم معرفة أسرتها وعدم التقدم عندما كان في عمان لطلب يدها قبل رحيله. كانت تختم خطاباته بالجملة التالية:

«عندما أرجع سنعاود توظيف خلفان كما كان سابقاً في حمل

twitter:@dohat_alkutub

رسائلنا لبعض. ينتابني الضحك كلما تذكرت خلفان يرفع طاقيته ويناولني آخر مؤلفاتك، يا لروعة خيالك يا منيرة يا حبيبتي. سنلتقي في غرفة الحارس كما كنا نفعل في السابق، وسأحضر معي هدايا لوالديك ولأسرتك. حتى ذلك اليوم لك أجمل التحيات والصحة والعافية، الآلهة تعرف أننا زوج وزوجة».

الذي حدث لشهم هو أنه عند وصوله إلى لبنان بدأ يبحث عن نبال قائلاً: اهتمامه بها لا يتعدى رغبته في معرفة إلى أين وصلت ثورتها ومقاومتها وتحديها؟ أيامه في عمان أبعدته عن الكثير من الأمور، لم يعد يعرف إلى أين وصلت المقاومة بأكملها وما الجديد في دنيا الأدب والثقافة؟ عمان تركها حيث كانت وبدأ يبحث عن مكانه في هذا المكان الذي تركه لحب استطلاع الجديد والغريب. إنه يريد مواكبة ما يدور حوله وينغمس مرة أخرى في داخل السياسة والثقافة والمتعة الشخصية. لقد نذر هو الآخر، كنبال، حياته لمتابعة الأحداث والتوغل في كل ما سيقربه من قضية شعبه.

منيرة لم يفكر فيها إطلاقاً منذ اللحظة التي تحركت فيها الطائرة القديمة من مطار (بيت الفلج) في ذلك اليوم العاصف حين الركاب يخافون أن تقع قبل وصولهم إلى أراضيهم متجهة أولاً إلى دبي ومن ثم إلى لبنان. تركها في عالمها بمجرد تركه لعمان لا يعرف لماذا ولكن ربما لأنه يدرك أن عالمه بعيد عن عالمها أو أن وزن المشاكل التى سيتكبدها من أجلها إن أراد شيئاً دائماً وثابتاً معها سيكون ثقيلاً! وهو شخصياً لا ينتمي إلى ذلك الصنف من الرجال الذين يحسبون حساب هذه الأمور كالرومانسية والود بين الجنسين. ما يهمه فى الدنيا ثقافته وتطلعه وقضية شعبه.

twitter:@dohat_alkutub

قال في داخله: قد تكون نبال سبغت أفكاره بأفكارها التي تسير على مبدأ الحرية في كل شيء. ما يعرفه أنه لا يفكر في صابرة إطلاقاً وأنه متأكد من أنها ستجد زوجاً على الطريقة التقليدية والمألوفة في وسطها. حتى الآن لم يسأل نفسه إن كانت منيرة حاملاً؟ ما حصل بينهما كما يتصوره ليس سوى ما يحصل بين رجل وامرأة، مثل الذي حصل بينه وبين نبال. لم يدر بباله أبداً أن نبال هي الأخرى يمكن أن تحمل منه. وربما حملت في آخر لقاء بينهما؟ فتاة ثورية متمردة كنبال لا يعرف جسمها الحمل من دون شك، وإن حملت فذلك أمر يخصها وستتصرف كما تشاء، حملها لن يكون حدثاً كبيراً أو كارثة إنه مجرد حمل. ما تحمله ليس ما في بطنها بل فكر ثورتها وصمودها. لذلك لم يعر أمر منيرة وإن كانت حاملاً أي تفكير.

ذات مرة وهو في شقته الصغيرة المنزوية في حارة فرعية من حارات بيروت، فجأة مرت على باله صابرة. اتضح أمام ناظره شكلها وتقاطيع وجهها الذي يذكّره بملكة سبأ الأسطورية. أليست ملكة سبأ منحدرة من ذلك العالم كما منيرة؟ إذاً لهذا صابرة تذكّره بها خصوصاً تقاطيع شفتيها الممتلئتين اللتين ربما بجانب جاذبية عينيها المعبرتين القاطرتين بالألم والحيرة أجمل شيء فيها. ما ذكّره بها أنه في ذلك الصباح وهو في طريقة ليشتري جرائد اليوم، مر على إحدى الكنائس الإغريقية الأورثوذوكسية القديمة. وقعت عينه على القس يطوف من مكان إلى مكان بمبخرة طويلة السلاسل، رائحة البخور عادت به إلى صابرة وإلى عمان وإلى مطرح، إلى مجمع المدرسين بل إلى كل ما ترك خلفة حتى طلابه والحارس مصبح.

نهض ليحرق بعض البخور الذي عملته صابرة وأعطته إياه هدية

twitter:@dohat_alkutub

لأمه وأخواته. أحرق قطعة صغيرة وكان في أشد الخوف من أن ينفجر الفتات فى وجهه كالقنابل، بسبب الكمية الكبيرة من العطور. بحذر أشعل البخور وإذا بالدخان يملأ المكان. لوهلة قصيرة سعل ولكنه استمتع بالرائحة. وبدا وجه صابرة من جديد يتضح أمامه حزيناً وعيناها ثائرتان كعيني نبال.

وهنا قال: الفتاتان ولو أنهما من عالمين مختلفين إلا أنهما متشابهتان في أمور كثيرة، الأولى تحارب بحريتها من أجل قضية والأخرى تحارب من داخل جدرانها من أجل قضية. إن القضيتين تختلفان إلّا أنهما ما تمثلآن قضايا حقيقية. قال في داخله: أين هي الآن لترى أين أعيش؟ عدا هذه اللحظة القصيرة لم تمر صابرة على باله.

سافر بعد وقت قصير من عودته إلى قطاع غزة ليبحث عن نبال التى قيل له إنها فتحت مكتباً للضغط السياسى الذي ذاع صيتة وجعله أهم مكتب ضغط سياسي في المنطقة من نوعه. أراد مشاركتها في هذا العمل المهم والانغماس في القضايا المهمة التي تدافع عنها نبال. وفي المستقبل قد يطلب يدها من نفسها ويتزوجا وينجبا أطفالاً يغذيانهم على الثورة والتحدي وعدم الخنوع. لكن نبال كما يعرف عنها لا تهتم كباقي النساء بالزواج وتوابعه، إنها متزوجة من ثورتها ومقاومتها فكيف له أن يفكر في الزواج منها؟ إذاً سيكون حبيبها إلى أبد الأبدين، لن يطمح بشيء سوى بالذي تمن به عليه نبال وسيعودان في يوم النصر مع أبناء شعبهما إلى فلسطين الحرة المنتصرة. هذا ما يريده، لا أكثر. نسي تأليف الكتاب عن عمان وديوان الشعر ومعهما نسي صابرة.

في يوم شعرت صابرة بآلام المخاض وعرفت أنها على وشك أن

twitter:@dohat_alkutub

تلد، فبعثت رسالة لأصيلة في طاقية خلفان. قالت له: اجري بسرعة أعطي هذة الرسالة لخالتك أصيلة أرجوك يا خلفان ولا تتلكأ، أرجوك أركض.

كانت الليلة قبل ليلة العيد وحواري مسقط جميعها مزدحمة بالناس سائرين وآتين بذبائح العيد وملابسه الجديدة والمصاغ. الكل في فرح وسرعة لاستقبال اليوم البهيج. تمنت صابرة لو أن موعد ولادتها كان فى يوم آخر غير هذا اليوم اعتبرته يوماً شؤم.

بالرغم من صعوبة الموقف كان يجب عليها تدبير الولادة من دون تلكؤ بمساعدة أصيلة، لكن ما عساها تقول لأخيها حمد عن تغيبها؟ لا تعرف! وبعد تفكير طويل وصلت إلى حل هو أن تقول له إن أصيلة وأمها تريدان مساعدتها تحنيتهما حنة العيد وهذا يعني أنها ستضطر إلى البقاء هذه الليلة في بيتهما حتى الصباح وستعود في الفجر قبل ذهاب الرجال إلى صلاة العيد. عندما قالت ذلك لحمد نظر إليها بتمعن كأنه لا يصدق صحة هذه القصة الغريبة ولو أنه تذكر في الماضي كيف كانت خالته فاطمة أم أصيلة تطلب من والدتة السماح لصابره بالبقاء معهم فى ليلة العيد لهذا الغرض ذاته.

بعد تفكير قصير قال: اذهبي ولكن قبل خروجك جهزي لي (دشداشتى ـــ جلابيتي) البيضاء التى أتيت بها من عند الخيّاط الهندي وخنجري و(مصري ـــ عمامة رأسي) حتى لا أتأخر في الطلوع في الصباح من البيت. أول الصباح أريدك هنا معنا هل سمعت؟ ستلومين نفسك إن لم تفعلي ذلك وستسببين خصاماً بين أسرة خالتي فاطمة وأسرتنا بعد سنين طويلة من الصداقة التي

twitter:@dohat_alkutub

ربطت بين أمي وخالتي فاطمة بل وبالأسرة بأكملها. سمعت صابرة بعض هذه الوصايا التى ألقاها عليها حمد وبعضها الآخر لم تسمعه، عقلها كان شارداً خلف الوصول إلى المستشفى ومقابلة أصيلة التي كانت كما طلبت منها في الرسالة في انتظارها تحت عقبة سداب.

أخبرت صابرة زوجة أخيها موزة بأنها ذاهبة بإذن من حمد لبيت أصيلة وطلبت منها أن تساعد أمها في انتقاء دشداشة جديدة للعيد وأخبرتها أن ملابس حمد جميعها جاهزة لتأدية صلاة العيد. كان الألم شديداً يشبه طعنة سكين حادة تحش الأمعاء من دون رحمة أو شفقة. لم تكن صابرة تظهر أياً من أعراض يجري في أحشائها، كانت تتقمص النشاط والحيوية. موزة لاحظت الهالات السوداء حول عينيها منذ أشهر، لكنها لم تحاول سؤالها عن سبب الشحوب الظاهر عليها. على هذا ارتفع وزن جسمها الذي كانت تحاول جاهدة إخفاءه تحت ما تلبس من أغطية راس وفساتين واسعة. قالت لموزة: سأعود في الفجر قبل ذهاب حمد وأبي لتأدية صلاة العيد. ولا تنسي يا موزة أن تذكري أبي بالذهاب مع حمد لتأدية صلاة العيد فكما تعرفين يجوز أن ينسى.

قالت موزة: لا أظن أن أباك السنة في صحة تؤهلة للذهاب مع حمد والرجال الآخرين إلى صلاة العيد، لكن سنرى غداً في الصباح إن شاء الله كيف حاله.

خرجت صابرة حاملة قنديلها في وسط الظلمة. وما إن تعدّت بضع خطوات حتى أطفأ الهواء القنديل، فاضطرت إلى العودة ثانياً للبيت لملئه بالغاز وهي في خوف شديد من أن تتأخر على أصيلة.

twitter:@dohat_alkutub

أصيلة وصابرة التقتا فى المكان المحدد وبدأتا تتشاوران في الظلمة على ضوء القناديل عن أسرع طريقة توصلهما إلى مستشفى الولادة، واتفقتا على أن أسرع طريقة هي أخذ سيارة أجرة.. لكن من أين هذة السيارة والدنيا مزدحمة والكل يتأهب لاستقبال العيد غداً؟ تابعتا السير إلى مسافة طويلة والهواء يلعب بشعلة القناديل تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال. وبعد المشي والإعياء بدأت مشارف مبنى المستشفى تظهر في الظلمة الحالكة وشعرتا بالمكان يلوح لهن من بعيد. مر عليهما رجل في سيارة خصوصية يظهر أنه غريب عن مسقط، ووقف بجانبهما وسألهما عن طريقهما؟ أخبرتاه أنهما متوجهتان إلى مستشفى الولادة. هو الآخر أنه آت بزوجته للولادة في المستشفى وكان في ذلك الوقت في طريقه إلى مسقط باحثاً عن مأوى يأوي فيه الليلة وقيل له بأن في حارة ميابين محطة «مسافر خانة». كان متجهاً إلى هناك وعثر عليهما في الطريق. فتح لهما باب السيارة الخلفي ودخلتا.

قالت أصيلة فور دخولهما وقبل أن تجلس على مقعد السيارة تماماً: «ابن الحلال هذة ابنتي في آخر لحظات ولادتها. زوجها يعمل في السعودية، غادرنا منذ يومين، لو كان يعرف بقرب موعد ولادتها لما ترك. وكما تعرف صاحب العمل وقته ليس له، للآخرين للذين يدفعون له أجرة كما هي حال زوج ابنتي.

قال صاحب السيارة وهو يسوق مسرعاً تجاه المستشفى: ما وصفته الآن هو حالي أنا كذلك. أنا أعمل في الكويت وعطلتي انتهت يوم أمس، لكني عندما وجدت أن زوجتي ستلد قريباً لعنت العمل وبقيت لآتي بها إلى هذا المستشفى، فحيث نسكن لا مستشفيات للولادة.

twitter:@dohat_alkutub

صابرة كانت تسمع الحديث المطول بين أصيلة والرجل، وعرفت أن أصيلة تجرّه في الحديث لتبعد تفكيره عن حالتهما حتى لا يكتشف سرهما. عندما وصلوا فتح الباب وخرجتا. قال الرجل: ستريان زوجتي وأمها، زوجتي تدعى منصورة وأمها تدعى آمنة وهما من منطقة الخابورة.

قالت أصيلة: إن شاء الله غداً صباحاً سنسأل عنهما من دون شك.

تركهما واقفتين أمام الباب لبضع ثوان يتشاوران بشأن ما ستقولانه للممرضات واقناعهن بأن صابرة فعلاً أم متزوجة أتت لتلد، وأصيلة أختها الصغيرة أتت معها ولو أنه عند الولادة عادة التي تأتي مع الحامل أمها لا فتاة صغيرة غير متزوجة كما هي حال أصيلة. على كل حال بمجرد وصولهما إلى المستشفى ستنقل صابرة إلى قسم التوليد فوراً وهذا لن يدع فرصة للسؤال عن خلفياتهما، خصوصاً أن مديرات المستشفى أجنبيات وعادة لا يتدخلن في الخصوصيات كما شأن الممرضات العمانيات. أما العمانيات فلو حاولن التطفل فأصيلة لن تعطيهن مجالاً لذلك. وعلى هذا اتفقتا أن تأتيا إلى المستشفى وبمجرد أن تلد صابرة في الصباح الباكر من اليوم التالي تهربان بسرعة وخفية بل حتى قبل الأذان، وهذة عادة الوالدات من أمثال صابرة على كل حال.

دخلتا ووجهاهما مغطيان. قدمت لهما إحدى الممرضات استمارة لتملآها لكن أصيلة ادعت بأنها لا تجيد القراءة والكتابة. الممرضات أدركن بفطنتهن فوراً أن الحامل فتاة ليست متزوجة والتي بصحبتها ليست سوى صديقتها. صابرة كانت تتصبب من العرق وجسمها

twitter:@dohat_alkutub

يكاد يتمزق من الألم الذي ألم بها منذ الصباح إثر التعب الذي عانته هي وأصيلة وهما تنزلان بسرعة من علي العقب إلى أسفل في طريقهما إلى المستشفى. بدأت تشعر وكأن الجنين سيخرج فوراً قبل موعده ومن دون عون الممرضات. واصلت أصيلة تشجيعها ومواساتها، ومساعدتها على المشي مع الممرضات إلى حجرة العمليات التي كانت مملوءة بالحوامل والمربيات وأصوات المواليد الجدد.

بعد دخول صابرة بقيت أصيلة تنتظرها خارج حجرة العمليات تارة تمشي وتارة تجلس وتتبين صريخ صابرة المر من بين صراخ الأخريات لكنها لا تستطيع عمل شيء تجاهها. حاولت مرتين أو أكثر الدخول إلى حجرة العمليات حيث ترقد صابرة، لكن الممرضة الأميركية نهرتها. حاولت مرة أخرى وإذ بممرضة هندية تنهرها وتصدها عن الدخول. عند المحاولة الثالثة استدعوا لها إحدى الممرضات العمانيات علها لا تجيد كلام الممرضات الأجنبيات (المكس) ولكن ما إن رأت أصيلة الممرضة العمانية إلا واهتز بدنها من الخوف وبدأت رجلاها ترتعشان أكانت تلك الممرضة هي الخالة عائشة بنت حمدان الغافرية والتي تعرف أمها وأم صابرة حق المعرفة. ما إن رأتها من تحت غطاء وجهها الكثيف حتى كفت عن البكاء ومحاولة الدخول إلى حجرة العمليات وانساقت خلفها إلى الحجرة التى ستقضي فيها صابرة ليلتها بل أيامها إلى وقت طلوعها ومن دون أن تقول الكثير لكي لا تعرفها من صوتها.

عائشة سألت أصيلة عن المكان الذي جاءتا منه فردت عليها بصوت ضعيف حتى لا تسمع جيداً.

twitter:@dohat_alkutub

عائشة تقول لأصيلة: ابنتك التي تولد لا أنت.. فلماذا خائفة ومضطربة إلى هذه الدرجة؟ لماذا هذا الخوف وهي في عناية الممرضة الأميركية المعروفة (نعيمة) ـــ نعيمة اسمها المعرب من اسم آخر لا يستطيعن النساء نطقه. لم ترد عليها أصيلة بالكثير كي لا يتبين لها صوتها وتعرفها فينكشف السر وتذهب بالخبر فوراً إلى ذويهما! من الفزع الذي انتابها خوفاً من أن لا تتبين عائشة حقيقتهما قالت أصيلة في داخلها: لو عرفت خالتي عائشة أمرنا، فحتى لو طلبت منها بل وتذرعت وركعت أمامها متوسلة عدم إبلاغ أهالينا لن أفلح. عائشة ستبلغهم فوراً، بسبب خيبة الأمل التي ستعتريها تجاه بنات صديقاتها وجيرانها وهذا يدعها تعتبرهن كأنهن بناتها. انقادت خلفها إلى حيث أخذتها إلى حجرة صغيرة بجانب الباب الرئيسي للمستشفى ولحسن الحظ لم تكن الحجرة مسكونة بعد من امرأة أخرى كما هي العادة، لقلة الحجرات، وكثرة الوالدات.

عادوا بصابرة بعد منتصف الليل متأخرين حيث كانت ولادتها صعبة جداً ومعها المولود الصغير الذي اختارت له أصيلة اسم باسم. ظلتا طوال الليل في توتر تغالبان الحرارة الشديدة التى استبدت بالمكان إثر انقطاع تيار الكهرباء وانتظار أول علامات الفجر لترحلا هاربتين من المكان تاركتين الصغير حيث هو على السرير. صابرة كانت تدخل وتخرج في وعي وغير وعي من الألم الذي ألمّ بها ممزوجاً بالخوف والأسى على تركها لمولودها الصغير. أصيلة عثرت على مروحة صغيرة يدوية ملقى بها بإهمال في زاوية من زوايا الحجرة، تناولتها وأخذت تهوي بها صابرة.

سمعتا صوت المؤذن يعلو في المسجد القريب. استعدتا للطلوع،

twitter:@dohat_alkutub

أسدلتا أغشية وجهيهما واقتربتا أولاً من السرير الصغير حيث باسم غافياً. رفعته أمه بحذر وضمته إلى صدرها بحنان وبعيون باكية ثم اسرعتا الخطا إلى الخارج متفاديتين الحارس الذي من دون شك سيصحو مبكراً لأداء صلاة العيد.

غادرتا المستشفى الذي كانت تفوح منه رائحة المعقمات والبنزين الآتية من آلة الكهرباء المعطلة. سارعتا الخطو وهما تتحدثان بصوت خافت عن كل ما حصل في الليلة الماضية وكأن ما كان لم يكن! وكأن صابرة تخلصت أخيراً من المشكلة إلى الأبد.

فجأة وفي ذلك الوقت المظلم وحيث خلا المكان من الناس الذين لم يبدأوا بعد الانتشار فى أرجاء المكان استعداداً للذهاب إلى المساجد لتأدية صلاة العيد.. إذا بيدٍ قوية باردة تقبض على ذراع صابرة من الخلف. انتفضت واقشعر بدنها وصرخت من دون شعور قائلة: من؟

جاءها الصوت بارداً وثقيلاً ثقل الرصاص قائلاً: ستعرفين يا ملعونة، ستعرفين من أنا فوراً لا تتعجلي. وإذا بالشخص يسل خنجراً من غمد في وسطة ويغرزه في صدرها بقوة. خرّت على الأرض فوراً، قتيلة تسبح في دم أحمر ينزف من دون توقف.. حتى دشداشة القاتل البيضاء الناصعة البياض صارت خريطة مرسومة ببحر من الدم.

القاتل كان حمد الذي كان في ذلك الوقت متوجهاً إلى المسجد لتأدية صلاة العيد. من بعيد تبين صوت صابرة وأصيلة وهما تتحدثان بهمس ولم يستطع تمالك نفسه من الغضب وفعل ما فعله

twitter:@dohat_alkutub

بصابرة. أما أصيلة فلم يلمسها بخطر بل دعاها وشأنها ترتمي على صدر صديقتها وواصل مشيته كأنه لم يقم بقتل أخته. فجأة تبيّن له اتساخ ملابسه بالدم فخلع دشداشته وإزاره من عليه كي لا ينجسه دم القتيلة وهو على نيّة لتأدية فريضة الصلاة الطاهرة. وإذ أدرك أنه بات عارياً إلا من الخنجر والعمامة التي تلتف على رأسه، شعر بالخجل فخلع عمامته فوراً من على رأسه وتوزّر بها واتجه نحو مكان لم يعد يعرفه. لم يعد المسجد الطاهر الذي لا يجوز فيه التعري حتى للرجال. واصل ماشياً هكذا نصفه الأعلى عار وأصابعه تقطر دماً وألماً من أثر الجرح الذي أصابه به الخنجر وهو يغمده في صدر صابرة.

واصل المشي جريح الأصابع يولول ألماً كأنه ذاهب إلى (عزوة العيد) لا إلى المسجد الطاهر بهدوئه الجليل وطهارته النقية. استلّ خنجره الحاد من غمده رافعاً نصله إلى أعلى وشرع يغني أغاني العزوة، قافزاً برجليه إلى أعلى. وكأن طبول العزوة تقرع من حوله وهو يغني:

والألف ألفت الكلام وادعيت للراوي سهم
جريت عصيان النظام متماثلة بصيغة أدم
والبا باسمك يا ولي بادي ولا قبلك اسم
يا رافع العرش العلي تخلق وجودك من عدم
والتا ترانا شاكرين بما أعطانا من نعم
وبطوع رب العالمين يعطيه ويزيده كرم
والثا ثلاثين تمام يلي بأيديهن سلم
بخضوع وركوع وقيام ويصون عرضة والجسم

twitter:@dohat_alkutub

والجيم جنات الخلود فيهن قصيرات القدم
ما ينالهن عاصي كنود ولا ينالهن فاعل إثم
والحا حمدتك يا كريم تهدي عبادك كلهم
وعلى الصراط المستقيم وتزول من قلبي الوهم
والخا ختمنا بالصلاة على المصطفى خير الأمم
من آل هاشم اصطفاه ربه وخصه بالفهم(*).

رأت أصيلة عدداً من الرجال يمرون قربها ويتزايد عددهم والشمس ترمي أول شعاعها الدافئ عليها وعلى جثة صابرة وعلى المكان بأكمله. طلبت من صابرة هامدة الجثة الوقوف كي لا يتبين للناس أمر ما جرى. صابرة كانت بعيدة كل البعد عنها فظلت في ذلك الوضع لفترة من الزمن تأكدت بعدها أنه لا جدوى من بقائها واقفة على رأس صابرة التى فارقت الحياة ومن الأفضل أن تعود إلى البيت وتخبرهم بأنها هي وصابرة كانتا عائدتين إلى البيت عندما دهمهن حمد من الخلف من دون مبرر.

(*) شعر للشاعر العُماني المرحوم عامر بن سليمان بن خلفان الملقب بالمطوع.

twitter:@dohat_alkutub

المؤلفة

- ولدت غالية آل سعيد في سلطنة عمان. تلقت المرحلة الأولى من دراستها بالسلطنة في المدرسة الإرسالية للبنات وهي أول مدرسة للبنات في السلطنة. بعد ذلك انتقلت إلى مدرسة الزهراء الحكومية للبنات لمواصلة دراستها المتوسطة.

- واصلت دراستها العليا في المملكة المتحدة حيث تخصصت في حقل العلوم الاجتماعية.

- حاصلة على شهادة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة ورك.

- تتمحور أعمالها، سواء الأكاديمية أو الأدبية أو الفنية حول: الناس، الحرية، العدالة، ونضال الشعوب المستمر في جميع أنحاء العالم للحصول على مستقبل أفضل.

مؤلفاتها

أيام في الجنة، بيروت ٢٠٠٥

twitter:@dohat_alkutub

twitter:@dohat_alkutub

غاليـة ف. ت. آل سعيد

صابرة وأصيلة

فجأة وفي ذلك الوقت المظلم وحيث خلا المكان من الناس الذين لم يبدأوا بعد الانتشار في أرجاء المكان استعداداً للذهاب إلى المساجد لتأدية صلاة العيد.. إذا بيدٍ باردة تقبض على ذراع صابرة من الخلف. انتفضت واقشعر بدنها وصرخت من دون شعور قائلة: من؟ جاءها الصوت بارداً وثقيلاً ثقل الرصاص قائلاً: ستعرفين يا ملعونة، ستعرفين من أنا فوراً لا تتعجلي. وإذا بالشخص يسل خنجراً من غمد في وسطه ويغرزه في صدرها بقوة. خرّت على الأرض فوراً، قتيلة تسبح في دم أحمر ينزف من دون توقف.. حتى دشداشة القاتل البيضاء الناصعة صارت خريطة مرسومة ببحر من الدم.

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

RF sabra wa aseela
2 010002 065622
R.O. 2.400

twitter:@dohat_alkutub